بحث فى
النظرية والبحث فى العلوم الإجتماعية

دكتور
حسين على حسين محمد
استاذ مساعد علم الإجتماع
كلية الآداب ... جامعة طنطـــا

مقدمـــة :

ان موضوع النظرية السوسيولوجية فى علم الأجتماع ظل وسيظل يشغل علماء الاجتماع باعتباره العلم الذى يدرس الظواهر أو النظم أو العلاقات أو الأنماط الاجتماعية دراسة تحليلية وصفية ، بمعنى دراسة الوقائع دراسة علمية لكي يصل إلي قوانين وقواعد ونظريات عامه تشبه تلك التى فى العلوم الطبيعية . ويجعله ذلك قادرا على التنبؤ بحدوث الظواهر اذا مرت بنفس الظروف معتمدا على الوقائع Facts بأنواعها المختلفة من أقتصادية ودينية وأخلاقية ونفسية وتربوية وقانونية وقضائية ولغوية وبيئية وثقافية (١) .

ومن البديهى أن نمو النظرية وتطورها فى علم الاجتماع هو اعلان بأنه أصبح يماثل العلوم الطبيعية المضبوطة ، وان كان هذا مجالا لاختلاف موضوع البحث فى كل من العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية خاصة علم الاجتماع . ولكنها محاولة منه دؤوب وهذا يفسر لصالح علم الاجتماع (٢) .

والنظرية فى علم الاجتماع كما فى غيره من العلوم ، المحك العلمى الذى يفسر لنا كافة الحقائق التى أمكن ملاحظتها بأساليب ووسائل عامة للوصول إلى نتائج ملموسة وواقعية ، والتأصيل النظرى لابد أن يتصف بدرجة عاليه من المنطق تساعدنا على اختبار الفروض التى نضعها من أجل تفسير كل قضايا البحث وجوانبه المختلفة . ومن ثم فان النظرية تساعدنا فى الوصول إلى نوع من المفاهيم والمقولات والافتراضات ، التى من خلالها نواجه مشكلات الدراسة . ولما كانت النظرية تشتمل على قضايا عامة فانها تصبح ذات دلالة ويعبر عنها بألفاظ وتراكيب بسيطة غنية فى معناها تفسر كافة الظاهر الاجتماعية . وهذه الألفاظ والتراكيب مفيدة أيضا فى رؤية أوجه التشابه والاختلاف فى البحث (٣) .

وتعتبر النظرية العلمية محور اهتمام العلم عندما يستعين بتلك القوانين الجزئية المتعددة التى تم التوصل اليها من خلال التجربة ، حتى يضمها كلها فى نظرية واحدة . ولقد استعان " نيوتن " بتجارب جاليليو وباسكال وهيجنز وغيرهم من السابقين عليه ، وذلك لضمها معا فى نظرية عامة هى نظرية الجاذبية . وكثيرا ما يلجأ العلم إلى الاستنباط العقلى بعد ادراكه للنظرية بحيث يتخذ من الأخيرة نقطة البدء ثم يستخلص منها بطريقة منطقية

ورياضية مايمكن أن يترتب عليها من نتائج ، وقد يقوم مرة أخري باجراء تجارب من نوع جديد ، لكى يتحقق من هذه النتائج بأنها صحيحة . فإذا ثبت ذلك كانت المقدمات التى ارتكز عليها صحيحة (النظريات) أما اذا ثبت عكس ذلك ، فانه يعيد النظر فيما بدأ منه وقد يرفضها كلية أو يصححها عن طريق ادماجها فى مبدأ عام أعم وأشمل . ومن أمثلة ذلك عندما وضع " انشتين " نظرية النسبية بناء على ملاحظات وتجارب جزئية سابقة قام بها هو وغيره من العلماء ، استخلص النتائج المترتبة عليها بطريقة الاستنباط العقلى ، وأجريت بالفعل تجربة كما في حالة كسوف الشمس وذلك عام ١٩١٦ ، وثبت صحة النظرية التى انطلق منها " انشتين " (٤).

فإذا وجد العالم أن التجارب والدراسات تحقق تنبؤاته وتؤيد ماقدره فانه يجعل من ذلك نظريه أو قاعدة ، يظل يستند اليها فى كل تنبؤاته المماثله الى أن يقدم مايثبت أنها لاتصح الا ضمن حدود معينة ، فتعاد الكرة مرة أخرى ، استقراءا واستنتاجا بحثا وتجريبا وتقصيا للحقائق من أجل تعديل النظرية أو تبديلها أو الغاؤها . ان البحث العلمي عبارة عن دراسات وتجارب وتقصيات ثم قواعد أو نظريات . يليها مزيد من التجارب لتحقيق هذه القواعد والنظريات . ويحتاج وضع النظرية أو القانون إلى مايسمي بالموهبة أو الالهام بالاضافة الى الاستنتاج والاستقراء . (٥) والاستقراء عبارة عن طريقة يمكن بها الوصول إلي أحكام عامة من الملاحظة والمشاهدة الحسية ، وهدفه تكوين حكم عام قائم على حقائق جزئية (٦) .

ويعرف العلم بوجه عام علي أنه تراكم لمعرفة منظمة . وهذا التعريف كاف وملائم فقط الى الحد الذى يتحدد وتعرف به كلمات مثل " منظم ومعرفة " فى ذاتهما . فالبرهان المنطقى أو علم الأديان المنظم يتساويان بطريقة أخرى بالعلم الطبيعى . فالخاصية الأساسية للعلم قد أهملت وتم تجاهلها فى التعريف السابق . ان العلم كمدخل للعالم الامبيريقى برمته ،العلم القابل للتجربه على يد الانسان . علاوة على ذلك فان هذا المدخل لايهدف الي الاقناع بالنتيجة المطلقة أو التحول عنها . وهذا المدخل نموذج للتحليل بحيث يسمح للعالم تحديد القضايا فى شكل : اذا ، وكذلك . وهكذا فانه لاتكون هناك معرفة منظمة كعلم مالم تبدأ بمسلمات أو قضايا بديهية ، ونتائج مستنبطة من تلك المقدمات البديهية .

ان الهدف الاساسى من العلم هو فهم العالم الذي يعيش فيه الانسان . والا فلا معنى لفهم العلم الامبيريقى المعقد والذى يتطلب تفسيرا هاما .

ومن سمات العلم الحديث ايجاد العلاقة المعقدة بين النظرية والواقعة . والفهم الشائع لهذه العلاقة غامض تماما . وقد كان هناك رأى عام يقول بوجود تعارض مباشر بين النظرية والواقعة ، ذلك أن النظرية مختلطة بالتأمل ، ولذلك تظل النظرية تأملا حتي يتم اثباتها والبرهنة عليها . وحينما يتم ذلك ، فان النظرية تصبح واقعة . فالوقائع عبارة عن فكر يجب توضيحه وتحديده ، وبلا شك فانه يجب أن يكون معناها واضحا بذاته .

بالاضافة الى ذلك فانه يوجد اعتقاد خاطىء وهو شائع يقول بأن العلم عبارة عن تفكير يجب أن يهتم بالوقائع فقط . فالنظرية (تأمل) يظن أنها حلم الفلاسفة . ويؤكد " وبستر" فى قاموسه الشهير : بأن النظرية افتراض وضع مسبقا لتفسير شيء ما . وهي تأمل . وكما أن النظرية العلمية فكر فانها بذلك محطة مجموعة من الوقائع التى تم جمعها عن موضوع معين (٧) . حتي هذه الوظيفة قد تحددت منذ أن تحدثت الوقائع عن نفسها .

واذا مانظرنا الى مايفعله العلماء فى واقع الأمر حينما ينخرطون فى البحث فانه يكون من الواضح أمامهم الآتى :

أولا : ان النظرية والواقعة لايتعارض أحدهما مع الآخر مطلقا ، فهما متماسكان لا انفصام بينهما .

ثانيا : ان النظرية ليست تأملا .

ثالثا : يهتم العلماء تمام الاهتمام بكل من النظرية والواقعة .

ولما كان العالم يرى أن هناك علاقة بين النظرية والواقعة وهذا على عكس المفهوم الشائع فانه ينظر الي الواقعة علي أنها ملاحظة امبيريقية من الممكن التحقق منها . وقد يرى القارىء صعوبة بالغة فى فهم هذا الموقف وقد يتطلب منه هذا معالجة فلسفية . أما بالنسبة للنظرية فان العالم يرى أنها تشير الى العلاقة بين الوقائع كما تنظمها بطريقة لها معنى .

ان الوقائع أو الملاحظات من الممكن تحقيقها امبيريقيا ، لكنها لن تكشف عن علم جديد وحديث ان لم يتم جمعها عشوائيا . فربما يحسب عالم عدد حبات رمل فى كومة الرمل ، بينما يقوم آخر بمسح مقدار حجم وشكل وآثار ومخلفات خشب شجر القيقب ، ولايزال هناك من يسجل الاختلافات والفروق فى ألوان سمك السلمون المرقط خاصة فى نهر ذو تيار عكسى ، ان الاجراءات الممكنة اللامتناهية ، مثل موضوعات الملاحظة ، وأساليب وطرق استخدام تلك الملاحظات تمنع بشكل قوى أى تقدم حقيقى من جيل الى جيل . وبهذا فانه بدون بعض النظام

وبعض المبادىء المنظمة ، باختصار ، بدون نظرية ، سوف لايستطيع العلم القيام بدوره فى التنبؤ وبدون التنبؤات فانه لايكون هناك سيطرة على العالم .

كذلك فانه يمكن القول بأن وقائع العلم تعتبر نتاجا للملاحظات غير الجزافية ، بل تكون ذات معنى أو هدف ، أي مناسبة ولها صلة بالموضوع نظريا . ان نمو العلم يرجع بالضرورة الى التفاعل الدائم بين النظرية والواقعة .

مما سبق فاننى قد آثرت أن أخصص هذا البحث لالقاء الضوء على مفهوم النظرية من حيث التركيب والفائدة وعلاقته بكثير من المفاهيم الأخرى كالاستقراء والاستنباط والفرض والقانون والامبيريقية والتنبؤ والواقعة على يد من عرفوها من العلماء ن أمثال نيكولا تيماشيف ، وكوهن ، والسى ببرسى ، وكارل بوبر ، وهومانز ، وهيمبل ، وميرتون ، دون التعرض لأنواع النظريات وعلماؤها تلك التى نالت حظا وفيرا من السرد . ويرجع اهتمامنا بمفهوم النظرية الى الأسباب الآتية :

١ - ان الكثير من الكتابات سواء الأجنبية أو العربية دائما ماتبدأ عرضها بالنظريات مباشرة كنظرية الصراع أو التطورية أو البنائية أو البنائية الوظيفية ، هذا من حيث أنواع النظريات أما من حيث الأنماط فكانت هناك التحليلية والميتافيزيقية والمعيارية والعلمية ، وهكذا . وكان هذا مدعاة للتساؤل ، ما معني النظرية من حيث المفهوم ، وإذا حاولت هذه الكتابات صوغ معنى للنظرية فلايسمن ولايغنى من جوع .

٢ - التوسع فى فهم دور النظرية وأثره على الواقعة ودورها هى الأخرى وتأثيرها على النظرية . وهذا كله يشكل مفهوم العلم الذي يسعى الى البحث عن الحقيقة ناصعة صادقة ، ولا يساعده على ذلك الا معرفة الحقائق ثم من جملة هذه الحقائق يصوغ العلم النظريات والقوانين .

٣ - كانت هناك شكوى بين طلاب الدراسات الاجتماعية من عدم العثور على تكامل معرفي لمفهوم النظرية . ولما كانت الحاجة ملحة فكان من واجبنا القيام بدور قد يساعد على سد هذه الثغرة وهو محاولة جمع مايمكن التوصل اليه عن مفهوم النظرية فى سياق متكامل يفى ببعض الحاجة ويقدم شيئا لدارسى النظرية السوسيولوجية .

٤ - ان التعريف بالنظرية من حيث المفهوم يحقق أهدافا عديدة منها :

أولا : قبل فهمنا لأى نظرية لابد من معرفة ما الذى نتكلم عنه ، عن المصطلح من خلال

ألفاظ محددة ومفهومة ، وهذه الألفاظ هي التعريف بعينه ثم نمضى فى بحث مانريد .

ثانيا : قد ترد علينا تعريفات ومفاهيم لابد من فهمها مسبقا فتزيد من معلوماتنا خاصة اذا كان بين هذه التعريفات والمفاهيم عناصير مشتركة .

٥ - ان النظرية تدخل فى باب العلم الذى يدخل تحت لوائه كل بحث عن الحقيقة . كما أن الدافع من وراء هذا البحث هو الفضول العلمى وحب الاستطلاع ، فقد يظن البعض أن تعريف النظرية من الأمور الهينة التى تأتى ضمنا في عرض النظريات السويسولوجية .

تعريف النظريـــــة :

١ - لقد عرف براثويت Braithwaite النظرية بأنها : مجموعة من الفروض التى تشكل نسقا استنتاجيا أى تتكون بشكل منظم من بعض الفروض التى تعتبر مقدمات منطقية لكل الفروض الأخرى التى تتبعها بشكل منطقى . والقضايا فى النسق الاستنتاجى ربما تنتظم وترتب فى مستويات بحيث تكون الفروض التى فى المستوى الأعلى هى المقدمات المنطقية فى ذلك النسق ، أما التى تكون فى المستوى الأدنى تصبح كنتائج للنسق ، أما المتوسطة تكون نتائج للاستنتاجات من المستوى الأعلى والتى تفيد كمقدمات منطقية لاستنتاج المستوى الأدنى . وقد اقتبست " كلير سيليتز" وزملاؤها هذا التعريف فى كتابها " مناهج البحث فى العلوم الاجتماعية " .

ان اهتمام العلم الحديث يدل على تمييزه لمصطلح نظرية بكل معاني الكلمة ، فالنظرية بهذا المنطوق هى باستمرار مرتبطة بالتأمل ، الذى هو نظرى غير واقعى ، خيالى . ولقد كانت نظريات العلم منذ القدم نتيجة لتأمل نظرى ، وكان لهذا التأمل تدعيم ولو ضئيل للمادة الامبيريقية ، وشيئا فشيئا ارتبطت النظرية بالملاحظة كلما سنحت الفرصة لتقدم العلم الطبيعى .

وبالنسبة للعلوم الاجتماعية ، لم ترتبط النظرية بالبحث ارتباطا محكما ، نظرا لأنه فى كثير من الأحيان كانت النظريات تتضمن عناصر تأملية تسعى بحثا وراء دليل أو برهان لمعطيات وبيانات مناسبة . مثال ذلك ، في علم النفس قد كان لبعض من نظرية التحليل النفسى القليل من الاثبات والبرهان فى التفسير الامبيريقى . ومع ذلك برهنت تلك النظرية وبشكل مفيد ومن خلال العمل الاكلينيكى وكمصدر لمنظورات جديدة على أهمية السلوك الانسانى .

ان النظريات فى العلم الحديث عبارة عن تلخيص للمعرفة القائمة وذلك بتقديم تفسير للأحداث والعلاقات التى تمت ملاحظتها علي أساس المبادىء التفسيرية المتضمنة فى النظرية . ومن الخصائص الأخرى للنظريات ، هى أنها مؤقتة خاصة فى العصور المبكرة ، حيث كانت النظرية تعتبر تفسيرا نهائيا . أما فى أيامنا هذه فان النظرية ترتبط دائما ببعض التجريب ولم تكن مجرد تجمع أو حشد كبير من النتائج المرتبطة بها . فالنظرية عبارة عن أسلوب فعال أو محتمل لحساب تلك النتائج فى ضوء المعرفة الحالية، ولكن مع ذلك فهى قابلة دائما للمراجعة، كما أنها ليست ثابتة أو ذات صيغة نهائية (٨).

٢ - ومن أهم التعريفات أيضا ، تعريف "نيكولا تيماشيف " ، كما جاء فى كتابه " نظرية علم الاجتماع طبيعتها وتطورها " ، اذ يوضح معني النظرية فى غضون تحليله لبناء أى علم امبيريقى ، حيث يذهب الى أن الملاحظة هى أساس كل علم امبيريقى بحيث يتم التعبير عن كل ملاحظة فردية بقضية تلخص حدوث الظاهرة فى زمان ومكان محددين ، ولم يكتف بذلك وانما أضاف بأن مطلب العلم لايتوقف عند حد ذلك وأنما يتعداه إلى أنه ينبغى عليه تنظيم هذه الملاحظات الفردية فى سياق منطقى بعد تصنيفها فيما يجمع بينها من شبه أو اختلاف . ومن خلال هذا التنظيم يتم التوصل الى مايعرف بالتعميم يجعلنا نتنبأ بما سوف يحدث لو توافرت الشروط كذا وكذا . فالتعميمات فى النهاية تعبر عن نتائج متعلقة بمجموعة من الظواهر . ولكن هذه التعميمات لاتعبر عن أرقى وأسمى مايصل اليه العلم الامبيريقى لأن هناك النظرية التى تمثل أرفع هذه المستويات .

فالنظريية عبارة عن مجموعة من القضايا تتوافر فيها الشروط الآتية :

١ - أن تكون المفهومات التى تعبر عن القضايا محددة تماما .

٢ - يجب أن يكون هناك نوع من الاتساق المنطقى بين القضايا .

٣ - أن تسمح القضايا بالاشتقاق بعضها من بعض .

٤ - أن تؤدى هذه القضايا الى جديد ومثمر بحيث تضيىء لنا الطريق الى ملاحظات أبعد وتعميمات أشمل (٩) .

٣ - ويشير كل من " روزنثال وبادين " (١٠) أن النظرية تعتبر بمثابة نسق من المعرفة التعميمية وتفسيرا لجوانب من الواقع المعاش . ولما كانت النظرية تمثل نسقا أو اطارا فكريا ، فهى بذلك نسق معقد ، لما كانت ترتبط بأشياء ومصطلحات ، فانها تختلف عنها من حيث الوظائف والتطبيق والممارسة ، لأنها تهتم فى جوهرها باعادة صياغة الواقع بشكل عقلى .

وفى المرحلة الوضعية لدى " كونت" قد هجر العقل البحث العقيم عن الأفكار المطلقة كالبحث فى أصل الكون ونهايته وعلل الظواهر المختلفة . وبدأ العقل يبحث عن القوانين التى تحكم هذه الظواهر ، وكانت وسيلة العقل للوصول الى هذه المعرفة : الاستدلال العقلى والملاحظة المرتبطتان بعضهما ببعض . فالعلم نسق من القوانين . وتبين النظرة الامبيريقية أننا نصل إلى القوانين بواسطة عملية الاستقراء . ذلك لأن عمليات الاستدلال العقلى التى توصلنا الى القوانين ليست عملية استقرائية على الاطلاق . فالعلماء لايستنبطون قوانينهم من أحكام ترتبط بحالات خاصة ، بل يبدأون بقضايا عامة يتخذونها فروضا ، وعندما يختبرونها فانهم يعتبرونها قوانين ثبتت صحتها . والموضوع الأهم هو أن القوانين العلمية لايمكن التحقق من صحتها بشكل مطلق . لأن القاعدة المنهجية الأولى للعلم كما ذكر " كوفمان " هى رفض قبول أى قضية فى بناء العلم لاتخضع للضبط الامبيريقى وتؤدى المعالجة بضرورة أن تكون القوانين محققة تحقيقا مطلقا الى رفض هذه القاعدة ، فالقوانين لاينبغى أن تعتبر حقائق قد ثبت صحتها نهائيا (١١) .

٤ - ويهتم " كارل بوبر " بقابلية الأحكام للاختبار والتفنيد ، فكلما ازدادت امكانية مواجهة القانون للتفنيد ، كان هذا القانون أكثر قبولا من وجهة النظر العلمية . أما القانون الذى لايخضع للتفنيد يرفض العلم قبوله . فالقابلية للتفنيد معيار هام من المعايير المميزة للقوانين العلمية . فالقانون العلمى الذى يثبت صحته هو القانون الذى يصمد دائما لمحاولة الفنيد . وقد يكون من الصعب تطبيق القابلية للتفنيد كمعيار فى العلوم الاجتماعية ، بسبب أن الظواهر أكثر تنويعا من ظواهر العلوم الطبيعية . فالقوانين السوسيولوجية مرتبطة بثقافات معينة ولاتتمتع قوانينها بصفة التطبيق العام مثل الفيزياء . واعترض " جورج لندبرج " على هذا بقوله بضرورة الوصول الى معايير القياس كادخال المناهج الكمية ، وهذا في حد ذاته يضع علم الاجتماع فى نفس المنزلة التى وصل اليها علم الفيزياء . والمشكلة الأساسية فى رأى " لندبرج " هى تقرير المفاهيم العامة التى يمكن على أساسها التنبؤ بالأنساق الاجتماعية (١٢) .

٥ - ومن المهتمين أيضا بتعريف نظرية علم الاجتماع " بيرسى كوهن " يقول فى مستهل الفصل الأول من كتابه " النظرية الاجتماعية الحديثة " بأن النظرية تتجاوز الحقائق المجردة ، ولاقيمة للنظريات اذا لم تتجاوز الحقائق ، وأن هذه الحقائق ماهى الا مجرد تقارير

نعتقد فى صحتها عن وقائع معينة قد حدثت . فالوقائع المقصودة لاتدور حول وقائع خاصة ، وانما تدور حول الاهتمام بالفئات الكلية للوقائع ، لأن هناك عدد غير محدود من الوقائع(١٣).

٦ - ويشبه " هيمبل " النظرية العلمية بشبكة ، تكون المصطلحات والمفاهيم فيها شبكات داخلية وتترابط فيها التعريفات والفروض بخيط رفيع داخل هذه الشبكات . ومن خلال هذه الروابط والصلات التفسيرية فانه يمكن لهذه الشبكة أن تعمل كنظرية علمية . ومن خلال ملاحظة بعض المعلومات والمعطيات ربما نعلو ونسمو للمسك بالخيط التفسيرى نوعا ما للشبكة النظرية . وهنا نسعى الى المصطلحات والفروض ومن خلالها يسمح لنا خيط تفسيرى آخر بالصعود الى مخطط الملاحظة (١٤).

وتعتبر الملاحظة دليلا هاما فى توجيه البحث وذلك بتحديد جوانب البحث المفيدة بحيث تكون للعلاقات بين هذه الجوانب معنى ، ويقول " ميرتون " فى هذا الصدد ، اذا كانت المفاهيم المختارة ليس بينها رابطة ، فان عملية البحث ستكون عقيمة (١٥).

ويحاول " كوهن" صياغة نظرية هامة عن ظهور " الثقافة الفرعية للمنحرف " فى قطاعات معينة من المجتمع المحلى الأمريكى ، توضح وظيفة النظرية فى البحث المقيدة بالمطالب الملحة الاجتماعية الخاصة ، كنظرية ، العداء والاحباط المستخدمة لتوجيه البحث السيكولوجى الاكلينيكى والتجريبى . واعتمد " كوهن " فى تطور هذه النظرية على نتائج البحوث الأولية عن الانحراف ، وعلى تجربته الذاتية مع عصابات المنحرفين ، وعلى الصيغ الأخرى فى علم النفس وعلم الاجتماع . وقد سار التطور فى هذه الخطوات التالية :

١ - ان كل سلوك بشرى له هدف من المشكلات .

٢ - انه على الرغم من أن كل الأفراد لديهم مشكلات ، لكن لايمكن توزيعها عشوائيا ، فى المجتمع ، فمثلا توجد هناك أنواع معينة من المشاكل التى تواجه الطبقة العاملة أكثر من المهنيين ، ولدى صغار السن أكثر من كبار السن ، ولدى الصبية أكثير من الفتيات.

٣ - والشرط الحاسم لظهور أشكال ثقافية جديدة مرهون بوجود تفاعل مؤثر وفعال بين هذه الأشكال وعدد من الأشخاص الذين يعانون من مشاكل متشابهة فى التوافق أو التكيف.

٤ - وهناك شرط هام لعملية التكيف لدى الفرد وهو من الضرورى أن يعتقد تماما أن الآخرين مهمين بالنسبة له وهو مهم بالنسبة لهم .

٥ - وهذا الشرط يكون من الصعب جدا تحقيقه ، خاصة بالنسبة لكثير من أطفال الطبقة العاملة . ففي المدرسة ، خاصة فى مراكز الترفية ، والمناشط المتعلقة بالمجتمع المحلى الأكبر ، يكون هؤلاء الأطفال محكومين فى حدود معايير الطبقة المتوسطة نظرا لأن الكثيرين من أطفال الطبقة العاملة ، لأسباب متعددة ، لم يعدوا الاعداد الكامل لمواجهتها .

٦ - ان الثقافة الفرعية للمنحرف ترتبط بهذه المشكلة من خلال امداده وتزويده بمعايير المكانة والوضع الذى يستطيع هؤلاء الأطفال الحصول عليهما .

٧ - وعلى الرغم من أن معظم أطفال الطبقة العاملة مندمجين جزئيا مع معايير الطبقة المتوسطة الا أن هناك صراع بين هذه المعايير وتلك التى لدى الثلة المنحرفة .

٨ - وعلى الرغم من ازالة هذا الصراع ، الاأن الثقافة الفرعية للمنحرف ترفض بشكل سافر (ومع ذلك فهي لاتتجاهل) معايير الطبقة المتوسطة ، خصوصا حينما يفضلون الاشارة الى رموز المكانة التى حصلوا عليها بشكل واقعى . علما بأن معايير المكانة داخل ثلة المنحرفين تتعارض مع تلك التى يتمسك بها المجتمع وتكون موضع احترامه .

وافترض " كوهن " بأن هذه النظرية تحتاج الى معطيات بالاضافة الى تلك التى عادة ماتجمع فى البحث عن الانحراف :

أولا : ان معظم البيانات الجوهرية عن استمرار حدوث أفعال الحدث نحن محتاجون اليها . كما أننا محتاجون الى الاحصائيات الحالية والتى تعتمد على التسجيلات والسجلات الحكومية (سواء البوليس أو المحاكم) أو على التسجيلات المكتبية أو السجلات الشبه رسمية للمؤسسات الاجتماعية ، كمراكز الجيرة ... الخ . وعادة مالاتعكس هذه الاحصائيات عن قرب بأى حال من الأحوال كل أفعال المنحرف التى تحدث . فالمشكلة ليست بالبساطة المعهودة ، لأن هناك استخفاف بتقدير مدى الانحراف فليس هناك اطمئنان بأن هذه السجلات تعطينا صورة دقيقة عن كيفية انتشار الانحراف فى قطاعات متعددة من المجتمع (بمعنى آخر ، ليس هناك اطمئنان بأن هذه القطاعات تمثل عينة غير متحيزة لسلوك المنحرف) .

وهناك دراسات مقارنة بين الأطفال المنحرفين وغير المنحرفين ، اختارت مادتها بشكل نموذجى من المنحرفين من السجلات الحكومية وشبه الحكومية ، كما اختارت أيضا غير المنحرفين من بين الأطفال بالرجوع الى معايير ومنظورات أخرى ، خاصة الذين غير مقيدين في أى سجلات . وأكد " كوهن " أنه على الرغم من استخدام الإحصائيات الدقيقة لاختيار

عينات غير متحيزة للأطفال المنحرفين وغير المنحرفين ، فانه من الضروري البدء باختيار عينة عشوائية من الأحداث من بين سكان منطقة ما وبعد ذلك يقوم بتحديد - من خلال لقاءات معينة ومتجانسة لموضوع الدراسة - الحدوث الفعلي للانحراف داخل هذه العينة .

وربما يسأل سائل ما الهدف من وراء نظرية " كوهن " التى أدت الى هذه التوصية الخاصة : أليس كل دارسى انحراف الأحداث على علم بالاحصائيات الحالية وحدود التطبيق فيها وقبولها كمدخل لجمع البيانات كما يفترض " كوهن " ؟ وربما يتطلب اختبار نظرية " كوهن " بعض البيانات والمعطيات منذ أن اعتمدت النظرية ، بشكل دقيق على افتراض أن الثلة المنحرفة توجد بين أفراد الطبقة العاملة أكثر مما هو قائم بين باقى أجزاء المجتمع الأخرى . وعلي الرغم من كشف الاحصائيات الحكومية والشبه حكومية الحالية عن وجود انحراف بين جيران الطبقة العاملة ، فيرى بعض الباحثين بأن هذا راجع الى انعكاس العمليات الاجتماعية على الموقف وهذا محور اهتمام مؤسسات الأطفال الحكومية (١٦) .

وقد تم التأكد من وجود ثلة من المنحرفين المرتبطة بمعايير الطبقة المتوسطة ورموز المكانة التى توصلوا اليها كنمط ونموذج للطبقة المتوسطة كما هو الحال بالنسبة للطبقة العاملة وبذلك أصبحت نظرية " كوهن " واهنة وغير صادقة .

ثانيا : يوصى " كوهن " بالاهتمام المتنوع لأنواع المعلومات خاصة فى الدراسات المتعلقة بانحراف الأطفال وغير المنحرفين منهم . ذلك لأن معظم البحوث كانت قد اهتمت بالعلاقات بين الانحراف وخلفية الأسرة وشخصيتها وخصائص الجيرة ، وهكذا . وعلى الرغم من معرفة اهمية وفائدة بعض البيانات فان " كوهن " يفترض أنه لاتزال هناك العديد من المعلومات عظيمة الفائدة عن السلوك الانحرافى ذاته ، وعن الحشد أو طبيعة ونشاط انحراف الفرد وعن كيفية اختلاف الانحراف لدى الفرد وموقف الجماعة . لقد ساعدت بعض المعلومات فى علاقتها بمعلومات أخرى ، متعلقة بخلفية الفرد والتى سبق دراستها بشكل نمطى ، على تقديم فهم واضح لنشاط المنحرف كما أفادت كحل لمشاكل أعضاء الثلة من أجل التكيف والتوافق مع المجتمع (١٧).

ان نظرية " كوهن" تفترض الحاجة إلى بحوث أكثر عن جماعات المنحرفين والأنساق الاجتماعية خصوصا العمليات وتاريخ الثقافة الفرعية لعصابات المنحرفين أكثر من الفرد المنحرف ذاته .

ان هذا التوضيح اهتم بالأساليب والطرق التى بمقتضاها تفترض النظرية مداخل بحث

مفيدة لدراسة جوانب عامة بحيث يكون للنظرية فيها مكانه هامة . ففى حالة انحراف الأحداث Junerile delniquency كنظرية تقوم بتوجيه البحث من خلال افتراض أنواع أخرى من الظواهر التى تفهم بنفس المصطلحات العامة . والخطوات الأربعة الأولى للصياغة النظرية لدى " كوهن" تشكل مدخلا لفهم كيف تنشأ أى ثقافة فرعية . وعلى الرغم من أن " كوهن " لم يطور ويوسع من هذه النقطة ، مع أنه افترض بعض الثقافات الفرعية المختلفة مثل الزمالة فى المدرسة وعالم موسيقيو الجاز والتى يمكن أن تفهم بنفس المصطلحات . ان البحث عن الجماعات سوف يركز على البحث عن المشاكل المشتركة التى يواجهها الأعضاء والأساليب التى بمقتضاها تساعد الأنماط الخاصة لهذه الثقافات الفرعية الأعضاء على الارتباط بها والانتماء اليها(١٨) .

ويرتبط بالوظيفة السابقة للنظرية ، وهى تحديد مداخل دراسة الظواهر الاجتماية ، وظيفة أخرى وهى مساهمة منها تضاف الى البحث وتزيد معانى النتائج ، وهى استقبال هذه المعانى كأجزاء مرتبطة بالبيانات والمعلومات على أساس أنها مجموعة من القضايا الأكثر تجريدا . مثال ذلك ، إذا كانت الدراسات الاحصائية تؤكد على الادعاء القائل بأن عصابات المنحرفين أكثير عمومية داخل الطبقة العاملة عنه داخل جيرانهم من الطبقة المتوسطة . هذه الحقيقة فى ذاتها لاتضيف كثيرا الى فهمنا للانحراف . لكن النظر الى العصابات كمثال للانحراف العام بين الناس يكشف عن مشاكل عامة توجب ايجاد حل مشترك يساعد على تفسير الارتباط بين الطبقة العاملة وعصابات المنحرفين .

ان هذا الترابط بين النتائج الامبيريقية المتعلقة بالمفهوم الأكثر عمومية لاتزال له فوائد أخرى : فهو يساعد على ضمان التنبؤ أكثر Prediction مما تفعل النتائج فى حد ذاتها . وربما يهتم التنبؤ بتقدير العلاقة بين متغيرين تم ملاحظتهما فى الماضى واستمرارهما فى المستقبل ، أو بتقدير أى التغيرات ، تحت أى ظروف ، تؤدى به الى الاهتمام بالتغيرات التى سوف تحدث فى العلاقة التى تحت الملاحظة .

كذلك اهتم "كوهن" بالخطوات المختلفة المقترحة كوسائل لتقليل الانحراف ، كالتسهيلات الترفيهية المناسبة ، ومراجعة خدمات النصح والارشاد فى المدارس ، ومراقبة الكتب الفكاهية وتدريب أهالى المنحرفين ، وزيادة عدد رجال البوليس فى المناطق التى تتمتع بمعدلات انحراف عالية ... الخ . ومع ذلك فان "كوهن" ، وهذا هو الأهم ، لم يناقش امكانية تطبيق المقاييس العلاجية مؤكدا بأنه ليست هناك ضرورة الربط بشكل مباشر بين فهم سبب Cause الظاهرة والكشف عن العلاج Cure المناسب لها .

ومع كل هذا فان نظرية " كوهن " تقترح بأن أى مقياس مقصود يقلل من أنحراف العصبة ربما يكون ناجحا الى حد مافى تغيير المعايير التى تحكم سلوك أطفال الطبقة العاملة فى المدرسة وفى المجتمع المحلى بوجه عام ، كما تساعدهم على مواجهة تلك المعايير الخاطئة .

باختصار أن النظرية لدى " كوهن" تزيد من فائدة البحث من خلال طرق وأساليب هامة للبحث وذلك بربط النتائج بوسائل العمليات المحددة والمتشابهة ، وكذلك عن طريق تقديم تفسير للعلاقات موضوع الملاحظة . فالنظرية المنظمة توجه البحث بحيث تساهم نتائجه بشكل مباشر فى تطور ونمو بناء المعرفة (١٩) .

وقد نجد مثل هذا المعنى فى اهتمام " دوركايم " بنظرية الأنومى أو فقد المعايير وعلاقة ذلك بالانتحار ، ولقد صاغ " روبرت ميرتون " فى كتابة " النظرية الاجتماعية والبناء الاجتماعى (٢٠) نظرية عامة عن السلوك الانحرافى عن القاعدة وانتهاك القواعد والمعايير المنظمة لحياة المجتمع . ويؤكد " ميرتون " على الأنومى ocnomie باعتباره يمثل خروجا وانتهاكا للمعايير الاجتماعية وقواعد السلوك العامة . وهذا الانتهاك يكون صارما حينما يسعى إلى أهداف وغايات معينة من شأنها خرق الثقافة العامة والخروج عليها فى المجتمع حيث لايستخدم الأفراد فى مواقفهم الوسائل الشرعية أو القانونية المتفق عليها ، لبلوغ تلك الأهداف والغايات ، فاذا كانت الثقافة مثلا تلزم المواطنين بضرورة التعليم ، ولكن الموقف الاقتصادى يضطرهم الى العمل معظم ساعات النهار من أجل بقاء حياتهم . كما أن الدولة لاتفى بمتطلبات التعليم من مدارس وكتب ومدرسين ، فتكون النتيجة هى الضغط بشدة على الفقراء من أجل تحقيق هدف التعليم . ان نقص التكامل بين الوسائل والغايات فى أى مجتمع يؤدى بالضرورة الى فقد المعايير أو الأنومى .

ويقترح " ميرتون " خمسة أساليب يستطيع الفرد من خلالها تحقيق الأهداف الثقافية والأساليب النظامية المتعلقة بها للوصول الى تلك الأهداف :

١ - ان الذى يستطيع أن يتقبل كل الغايات والوسائل ويوفق بينها يمكنه الوصول إلى الأهداف وبهذا يعتبر ممتثلا للثقافة (الامتثال)

٢ - أما من يستطيع أن يقتنع بالاهداف لكنه يرفض الأساليب والطرق التى توصله الى تلك الأهداف ويبتدع أساليب جديدة يسمى بالمخترع (اختراع) .

٣ - أما الذى يتشبث بالوسائل النظامية كغايات فى حد ذاتها بينما هو ينسى الأهداف المقصودة أصلا فهذا المتمسك بكل ما يتعلق بالطقوس (طقوسى) .

٤ - ومن يستطيبع أن يرفض كل من أهدافه الثقافية والأشكال التى تميزها ، فهو ينتمى إلى مذهب التراجع أو (التراجعى) .

٥ - أو أنه اذا استطاع التسليم بكل من الأهداف الثقافية والوسائل ، ولكنه يتبنى الوضع الثورى ويحاول اختراع وسائل جديدة . هذا النمط يطلق عليه (عصيان أو تمرد)(٢١) .

بينما يمثل النمط الأول المصلح ، فان النمط الثالث يمر عادة من خلال النمط الأول . أما الثانى فانه يتمثل فيمن ينظر اليهم الناس فى شك وريبة على أنهم منحرفون ، كالمبتز للمال الذى يطالب بالحراك الصاعد مثلا . أما النمط الرابع فهو كالمتسكع المتسول أو البوهيمى الذى لايقيم وزنا للقيم أو العادات . أما النمط الخامس فهذا هو النمط الثورى أو العاصى المتمرد على السبب .

ويؤثير سلوك المنحرف على البناء الاجتماعى (الوظائف الكامنة) بحيث جعلت هناك دورا لرجال البوليس واقامة مؤسسات سرية تفيد فى توجيه الأطفال كنموذج للدور الاجتماعى السوى ، الذى يقوم به المصلحون الاجتماعيون هذا الدور العاطفى الفعال . فالبناءات الاجتماعية التى انشئت من أجل السيطره وضبط الانحراف خلقت معايير خاصة بها وتركت علاماتها على الثقافة التى ينتمون اليها (٢٢) .

٧ - ويرى هنرى مندارس Henri mendras فى كتابه " عناصر علم الاجتماع " (١) : أنه من الصعوبة القول بوجود نظرية فى العلوم الاجتماعية ، وأكثر من ذلك وجود نظرية جديدة . فعالم الاجتماع كأى باحث " يبنى " الموضوع العلمى ويقتضاه يجمع الحقائق التى تؤيده ثم بعد ذلك يجردها . وهذا البناء يكون بفعل الأفكار المباشرة والتى لاتكون بالضرورة نظرية لأن النظريات عادة ماتكون قليلة العدد . وهذه الأفكار المباشرة تعبر عن معنى عام ومشترك ومحدد ثم تتحول الي مفاهيم تجيب عن تعريف محدد تماما كلما أمكن ذلك : والمفهوم الجيد هو المفهوم الذى لايتضمن أكثر من معنى . وتعدد معانى الأفكار المباشرة يعود بمنافع وفوائد غير محددة ، ولكنه فى نفس الوقت يسبب تشويشا وتناقضا فى بناء موضوع الدراسة . مثال ذلك ، مصطلح العائلة famille قد يكون غامضا فى لغتنا ، ولكن تكون له فائدة وميزة حينما يحل محله مصطلح القرابة parente وسوف نميز بين هذين المدلولين الهامين بالآتى :

١ - أن تحديد المفاهيم يعتبر الخطوة الأولى نحو النظرية ، وهذا بدوره يؤدى الى معرفة الدليل والبرهان الذى نتحدث عنه .

٢ - ان الوقائع يمكن جمعها وتحليلها بفضل المفاهيم ، وعلى عالم الاجتماع أن يحاول بقوة القيام بالتفسيرات لما وراء الواقعة post-Factum بمعنى تقديم تفسيرات وشروح بسيطة لتنظيم المعطيات التى تعطى الواقعة معنى وتفسرها . ومن خلال هذا العمل نحصل على نظرية مختبرة تماما .

٣ - يسعى البحث الامبيريقى الى تشييد بناءات متناسقة لها صفة الانتظام regularites التى بمقتضاها يمكن أن تتقابل (أ) وترتبط مع (ب) . وهذا مايمكن تسميته بالتعميم الامبيريقى . وهو عبارة عن قضية تلخص العلاقات القائمة والتى يتم ملاحظتها بين اثنين أو أكثر من المتغيرات وقد حشدت العلوم الاجتماعية العديد من القضايا الهامة فى هذا الاطار . مثال ذلك ، هناك قانون مشهور " لآنجل " عن المصروفات المنزلية ينص على : أن النسبة المئوية للتغذية تتباين حسيا بشكل عكسى مع ارتفاع الأجر . وهذا القانون يتحقق بشكل عام ولكن على الرغم من ذلك فانه يشوبه بعض الاستثناءات . فهو يتحدث عن ملاحظة بسيطة فى هذا النظام الكبير الذى يفيد بشكل جوهرى فى تحليل النظرية . ومع ذلك فان هذا لايعتبر نظرية ، بل هو من باب الاطلاع واتساع المعرفة ، المعرفة التراكمية التى لاتزال تشكل نظام البحث الإمبيريقى ، بمعنى تشييد وبناء الواقائع .

٤ - ان النظرية الحقيقية عبارة عن مجموعة من القضايا المتماسكة المترابطة المنطقية التى تسمح بملاحظة عدد كبير من الوقائع ، وعلى الخصوص التعميمات الامبيريقية . والنظرية التى تسقط من حسابها واقعة ما أو تهملها فانها تفشل فى أن تكون عامة . وتعنى العمومية هنا استقصاء كل وحدات الموضوع . لأنه ربما يخاطر التعميم بتفسير واقعة مهمة . والواقعة ذات التعميم الإمبيريقى دائما ما تكون موضع تفسير لكثير من النظريات . كما أن النظرية تعطى قيمة لعدد كبير من الوقائع ، وفى هذه الحالة تكون هناك فرصة أخرى لنظرية أخري تستحوز هذا الاهتمام ،

لم تكن المساهمات بين النظرية والبحث تسير فى اتجاه واحد . فاذا كانت النظرية تستثير البحث ليعزز معنى نتائجها ، فمن ناحية أخرى ، فان البحث الامبيريقى يخدم ويساهم فى اختبار النظريات ، كما يقدم أساسا لتطور ونمو نظريات أخرى جديدة .

ومن النظرية المصاغة جيدا يمكن استنتاج ماسوف يحدث في مواقف متعددة اذا ما حدثت نفس الظروف . فمن نظرية " هيل " Hull عن العلم ، أمكن استنتاج أشياء مختلفة ، كالمعدل الذى يمكن تعلمه من جوانب كثيرة من العمل ، وكذلك التأثيرات المحدودة ازاء الممارسة المكثفة ، وكذلك تأثيرات المكافأة على انجاز أى عمل بشكل منتظم فى مواجهة كل ماهو عارض ..الخ ان هذه الاستنتاجات تقدم فروضا للبحث الامبيريقى . فاذا كان هناك فرض تم اختباره وثبتت صحته من خلال دراسات مخططة ، فان هذه الدراسات تكون قد ساهمت فى تحقيق البناء النظرى برمته والذى منه تم الاستنتاج . ومن ناحية أخرى ، فانه اذا لم يثبت التحقق من الفرض أثناء البحث فانه من الضرورى اعادة اختبار النظرية لمعرفة ماإذا كان هذا الاختبار قد نبذها ، على اعتبار أنها غير ثابته invalid ، أو أن يكون من الواجب اجراء بعض التعديل ليجعلها متفقة مع نتائج البحث . وفى حالات أخرى تقوم بعض الدراسات التى يقتضيها الموقف بالاستنتاجات المتعلقة بالنظرية المعدلة حيث تدعم بالملاحظة المبيريقية .

وفى العلوم الاجتماعية المعاصرة يوجد القليل من النظريات التى قامت عليها دراسات خاصة لاختبار مدى صدقها validity . لذلك غالبا ماتكون وظيفة البحث المساهمة في تطوير النظرية أكثر من اختبارها .

والمساهمات المتعلقة بتطوير النظرية اما أن يخطط لها بوعى ، أو اما أن تكون عرضية لم يخطط لها . فعالم الاجتماع الذى يهتم بتنمية بعض جوانب النظرية ربما يتبع احدى هاتين الطريقتين : إما أن يعيد اختبار الدراسات القائمة ، واما أن يعد برنامجا لهذه الدراسات مؤكدا على التساؤل الذى يكون موضع اهتمامه . وعلى أى الحالات ، فانه لايبدأ كلية بالبحث والتنقيب عن أصل الدراسات المبكرة ، أو الصيغ النظرية الأخري ، أو ملاحظاته الذاتية ، فهو عادة ماتكون لديه مفاهيم محددة فى ذهنه ، واحتمالات محددة لصيغ بديلة .. الخ . فاختباره للدراسات القائمة أو خطته للدراسات يمكن انجازها فى ضوء هذه المفاهيم وهذه الصيغ التجريبية .

ان تطور النظرية على أساس دراسات قائمة حدده كل من " ميرتون " و " روسى " في مؤلفهما عن " مساهمات نظرية سلوك الجماعة المرجعية " . استخدم العالمان فى بحوثهما المتعددة عن " الجندى الأمريكى " الأساليب التى يختار من خلالها الأفراد كبدايات ونقاط مرجعية لتقييم مكاناتهم الخاصة . وعلى الرغم من أن دراسات الجندى الامريكى لم يخطط

لها فى حدود مفهوم الجماعة المرجعية reference- group ، إلا أن عددا من الدراسات كانت قد اهتمت بالروح المعنوية والاشباع والرضا ، وتم تفسيرها فى حدود هذه المصطلحات .

ان موضوع تقدير الناس لمكاناتهم من خلال مقارنتها بتلك التى لدى الآخرين ، لم تكن فكرة جديدة . فعندما قام كل من " ميرتون وروسى " ببحثهما عن الصياغة النظرية ، قاما بفحص الجهود التى قام بها العلماء الاجتماعيين الآخرين الذين استخدموا هذه المفاهيم وما يشبهها . وقد اسخدم العالمان كل الارتباطات المناسبة والعلاقات غير الثابته ، كما ناقشا العناصر المشتركة في تسع دراسات عن الجندى الأمريكى ، ناقشا فى كل دراسة اتجاهات الجنود التى تم تفسيرها فى حدود الإحباط النسبى الذى عانوه بمقارنته بالجماعة المرجعية من موقف لآخر . فقد اعتمد الجنود فى تقييم مواقفهم الشخصية بمقارنتها بجماعات أخرى . وقد استخدم الباحثان منهج المقارنة بين الجماعات كأساس وكقاعدة ، سواء كانت الجماعات من نفس المكانة أو مكانات أعلى أو أدنى . وقد توصل الباحثان من اعادة اختبار نتائج البحث الى السؤال الآتى حول الأهمية الجوهرية في تطوير نظرية سلوك الجماعة المرجعية : ماهى الظروف التى بمقتضاها تترابط هذه الجماعات وتعتبر كاطار مرجعى للتقييم الذاتى وتكوين الاتجاه ، وتحت أى الظروف تعمل الجماعات الخارجية أو الجماعات اللاعضوية فى تقديم اطار مرجعى هام ؟ .

فاذا أمكن الاجابة عن هذا السؤال فاننا سوف نحصل على نظرية للجماعة المرجعية ، على الرغم من أن هذه الاجابة تعتبر أول الخطوات فى تطور النظرية . (٢٣) وهكذا سوف تكون النظرية أداة هامة فى التنبؤ وفهم الروح المعنوية فى كثير من المواقف .

لقد قام الباحثان فى المثال السابق بتقدير ورصد العلاقات المتداخلة بين الوقائع فى أجزاء البحث المتفرقة باستخدام مفهوم موحد - وهو الجماعات المرجعية . وترتب علي ذلك أن قاما بتوضيح ونشر مفهوم الجماعة المرجعية ، وأشار الى الاتجاه الذى تسير فيه البحوث التى تهتم بمفهوم نظرية سلوك الجماعة المرجعية .

ومن بين البحوث أيضا ، بحث وسائل الاتصال ليبل Yale وهو مثال على كيفية تطبيق وتنفيذ البحوث المنظمة والمنسقة بهدف تطوير النظرية . ان هدف وطبيعة هذا البرنامج قد وصفه كل من هوفلاند وجانيس وكليلى كالآتى :

ان وفرة المعلومات الوصفية التى تم جمعها ، كانت تهتم بوسائل الاتصال المقنعة - كالبرامج التعليمية ، والمعسكرات العامة ، والاعلان والدعاية - وتأثيرها على السلوك

والرأى . واستمدت معظم هذه المعلومات من الدراسات التى تركز على المطالب والتساؤلات التى يطرحها القائمون بتطبيق وسائل الاتصال والذين يستخدمون الوسط الجماهيري ، وذلك بهدف تنمية وتطوير القضايا العلمية التى تحدد الشروط التى من خلالها تزداد أو تقل فعالية نموذج أو آخر من وسائل الاتصال المقنعة ثم يتم تحديد الدليل أو البرهان المناسب تماما ، وعلى الرغم مما أفادت به البحوث التطبيقية فى اقتراح فروض تجريبيبة واخضاع المشاكل النظرية للتحليل ، فان التأكيد العملى غالبا ما يكشف عن اهمال جسيم لأهمية النتائج المثيرة التى لاتكشف عن تطبيق مباشر . وهنا تتكشف الحاجة الى بحوث جوهرية لتدعيم النتائج المشتقة من تفسيرات الطبيعة العملية . فبعض البحوث التى تتضمن تجارب سيكلوجية كما فى حالة وسائل الاتصال قد ساهمت فى فهمنا لعملية التذكر والتفكير والدافعية والتأثير الاجتماعى .

وكان الشكل الأول لهذا البرنامج - كما كتب هوفلاند - وزملاؤه يهتم بالأسئلة المتعلقة بشكل نسبى بالعوامل والشروط التى تؤثر على فاعلية وسائل الاتصال فى الكشف عن تغير الرأى ، وقد كشفت الدراسات الأولية عن اجابات مؤقته لكثير من هذه الأسئلة . كما افترض الباحثون فى نفس الوقت أساليب جديدة لتنظيم المشكلة التى ظهرت لتكون أكثر فائدة فى تطور نظرية موحدة عن وسائل الاتصال وتغير الرأى . وهذه الموضوعات الجديدة كافية بأن تغطى أنواع بحوث الاتصال مؤكدة علي العمليات المتضمنة فى تغير الرأى أكثر من الشروط التى يتحدث بمقتضاها . وقد ضمن الباحثون دراسة عمليات الادماج الذى يعنى تحول الامتثال من الخارج الى الامتثال الداخلى والعلاقة بين الصراع وتغير الرأى والعلاقات بين الادراك والحكم وتكوين المفهوم .

٨ - ويعتبر " جورج هومانز " (٢٤) من علماء الاجتماع الذين اهتموا بموضوع نظرية علم الاجتماع أو كما يسميها النظرية السوسيولوجية Sociological theory . فهو يبدأ تعريفه بأنه ، اذا كانت الدراسة تركيبية أو عامة فانه يمكن القول فى هذه الحالة بأنها نظرية . ومن وظائف التفسير النظرى كما يقول " ويلارد جيبس W. Gibbs ، تقديم مصطلحات يتم بها التعبير عن نتائج التجربة . وتعد الملاحظة أساس التجربة ، فمن خلال الملاحظة يتم التوصل الي مجموعة من النتائج يمكن التعبير عنها في حدود مصطلحات تفى بأغراض وأهداف البحث . فلقد لاحظ " هومانز " أنه من أجل التوصل الى نظرية عامة عن الجماعة الصغيرة لابد من البدء من علم الدلالات (دلالات لألفاظ) العلم الذى يتعقب الكلمات فى صلتها بالواقعة موضوع الملاحظة . ففي علم الاجتماع نواجه بالعديد من الكلمات مثل :

المكانة ، الثقافة ، الوظيفة ، مساعد علي الاكتشاف ، خصائص ، علم المناهج ، تكامل ، تضامن ، سلطة . ونحن دائما مانتعامل مع هذه الكلمات وليس مع الملاحظات . وأكثر من هذا فاننا لانزاوج بين الاثنين . وتمثل هذه الكلمات المصطلحات التى تساعدنا فى الوصول الى منهج بسيط يصنف مانراه ، ومن خلال هذا التصنيف ذاته فلسوف نحصل على مجموعة جديدة من المفاهيم المناسبة الأكثر من بعض تلك المفاهيم القديمة الموجودة فى العقل .

ولنتناول مثلا مفهومى المكانة والدور ، والمستخدمان بشكل شائع فى العلم الاجتماعى . فماذا نعنى بهذين المفهومين ؟ فلقد أعطى " رالف لينتون [٢٥] Ralph Linton عالم الأنثروبولوجيا مثل تلك المفاهيم مكانة خاصة فى نظريته الاجتماعية ، اذ يقول : المكانة بشكل مجرد ، هى وضع من نمط خاص ، لسلوك اجتماعى ، والمكانة فى تميزها عن الفرد الذى يشغلها هى ببساطة مجموعة الحقوق والواجبات . أما الدور فانه يمثل الجوانب الدينامية من المكانة . فحينما يؤدى الفرد الحقوق والواجبات فى علاقته بالمكانات الأخرى ، فانه بذلك انما يقوم بانجاز الدور . ان المكانة والدور لايمكن فصلهما أبدا ، أما الفصل أو التمييز بينهما فانه يكون من أجل الاهتمام الأكاديمى فقط . فليست هناك أدوار بلا مكانات أو مكانات بلا أدوار ومن أمثلة المكانات أن يكون للفرد العديد من المكانات فيكون أبا وضابطا وشماسا فى كنيسة أو واعظا فى جامع . ونحن لانلاحظ مباشرة المكانة والدور ، ولكن كل مانلاحظه هو الأنشطة والتفاعلات ، والتعميمات والمعايير والضوابط . فالمكانة والدور هما اسمان نعطيهما لأنواع كثيرة معقدة ومختلفة من الملاحظات [٢٦] .

لقد حاول " هومانز " إقامة وتشييد قواعد عامة عن السلوك البشرى وذلك لاستخدامها فى تكوين نظريات سوسيولوجية أكثر عمومية . وقد دعاه ذلك الى دراسة نماذج من الجماعات الصغيرة لامكانية ملاحظة هذا السلوك الذى يتعذر ملاحظته فى التنظيمات الكبرى . ذلك لأن الوحدات الكبرى غاية فى التعقيد ، ومن ثم لانستطيع أن نصل الى تعميمات غاية فى الدقة والصدق . وكانت لهذه الجماعات خصائص معينة ، كانها تكونت عن قصد كما أنها متماسكة بشكل طبيعى ، ومنظمة ووظيفية .

والدراسات التى اعتمد عليها" هومانز " لتحليل نتائجها هى خمس دراسات تطبيقية لجماعات اجتماعية . دراسة لالتون مايو ، بشركة الكهرباء الغربية ، ودراسة لهوايت عن مجتمع النواصى ، ودراسة ريموند فيرث لعائلة تيكوبيا ، ودراسة زمرمان عن اللاتكامل الاجتماعى فى هيل تاون ، ودراسة أرنسبرج وماكجريجور لمصنع المعدات الكهربائية . وكان يهدف من وراء ذلك الوصول الى تعميمات نظرية مجردة عن السلوك الاجتماعى لهذه الجماعات يمكن تعميمه .

ولقد توصل " هومانز" الي نظرية عامة للسلوك البشرى من خلال تحليلاته للجماعات المختارة حيث خلص الى أن هناك ثلاثة عناصر أساسية ينحصر فيها لسلوك البشرى وتمثل اطارا عاما يشكل صورة متكاملة عن سلوك الجماعة . وهذه العناصر هى :

١ - التفاعل ، ويقصد به علاقة الأفراد بعضهم ببعض .

٢ - العاطفة ، وهى مجموع الأحاسيس والمشاعر الداخلية للأعضاء تجاه بعضهم البعض

٣ - النشاط ، ويعنى به العمل الذى تمارسه الجماعة وما يقوم به باقى الأعضاء من وظائف . وهناك عنصر رابع أضافه هومانز " وهو المعايير ، باعتبارها مجموعة من الأطر المرجعية التى تحدد سلوك الجماعة (٢٧) .

قواعد بناء النظرية عند جورج هومانز :

ولما كانت النظرية عبارة عن صيغة تعبر عن نتائج الملاحظة ، فان هناك قواعد لبنائها :(٢٨) .

١ - البحث أولا وبعناية عما هو واضح ومألوف ومشترك . ففى العلم الذى لم يصل الى نتائج تكون هذه الشروط مطلوبة لاستيفاء الدراسة .

٢ - التحديد والوضوح فى عموميته الكاملة . فالعلم هو اقتصاد للفكر وذلك اذا تم جمع العديد من الفروض التى تضم عددا كبيرا من الوقائع فى صيغة بسيطة .

٣ - الحديث عن شىء واحد فى وقت واحد. ففى اختيار كلماتك (المفاهيم الفضفاضة) فانظر وراع أنها لايجب أن تشير الى مجموعة متنوعة من الوقائع ، ولكن الى واحدة فقط . فمن الضرورى : أولا : أن تختار كلماتك ، ودوما تستخدم نفس الكلمات حين الاشارة الى نفس الأشياء .

٤ - اعادة تشكيل مايقابلك من العديد من الأشياء التى تتحدث عنها ، فكلما كانت كثيرة كلما صعب دورك . هذه القاعدة تتحكم فى عدد أنواع الوقائع التى تكون فى حسبانك .

٥ - أولا من الضرورى أن تبدأ بالحديث ولاتتوقف حتى تنتهى . وهو أن تصف بشكل منظم العلاقات بين العلاقات التى توضحها كلماتك .

٦ - معرفة أن تحليلك يجب أن يكون مجردا ، لأنه يرتبط فقط بالقليل من عناصر الموقف الواقعى . سلم بأخطار التجريد ، خصوصا حينما يكون مطلوبا للعمل به ، ولا تخاف منه abstraction .

أن النظرية بالمعنى التقليدى ، تنظيم للتجربة على أساس بيانات المشكلة بأسلوب يجعلها تكرس نفسها لاستثمار الموقف .

اذن فما هو نوع النظرية التى يقدمها " هومانز " [٢٨] ؟ ونستطيع أن نقول الآن بأن هدفه يكمن فيما يلي : أولا : ان سلوك الجماعة سيتم تحليله فى ضوء عدد من العناصر المعتمدة بعضها على بعض بالتبادل .

ثانيا : يجب أن تدرس الجماعة ككل عضوى ، أو كنسق اجتماعى ، توجد فى بيئة .

ثالثا: ان العلاقات بين العناصر الواحد منها بالآخر فى هذا النسق سوف تكشف عن تطور بداخله علي مر الزمن .

ربما نستطيع توضيح ذلك المعنى بتحليل سريع لواحدة من الجماعات البسيطة : صديقان ، يحب أحدهما الآخر . فاذا سألنا أنفسنا لماذا يفعلان ذلك ، فنجيب بأن كل منهما يهتم بالآخر ، أو أن شخصية كل منهما تناسب شخصية الآخر . فمشاعرهما العاطفية الواحد تجاه الآخر لم تكن شيئا فى حد ذاتها ، لأنها لاتوجد فى فراغ ، فهى تتحدد من ناحية بعوامل أخرى ، وهذه العوامل هى أنهما صديقان مثلا ، لأنهما يهتمان ببعضهما ، فاذا كنا جيدى الملاحظة للسلوك الاجتماعى الانسانى ، نعرف أن العكس هو الصحيح ، فاذا ماكانا أصدقاء فانهما سوف ينميان اهتمامهما المشترك فهل هذه العلاقة تأتى أولا من الصداقة أم من الاهتمامات المشتركة ؟ ان الاجابة ليست هى من يأتى أولا ، وانما هل تزداد هذه الاهتمامات أم تنقص . ونحن هنا لانتحدث عن عملين و عنصرين يعتمد كل منهما على الآخر اعتمادا متبادلا . ولكننا نتحدث عن الشخصية والاهتمامات ومشاعر وعاطفة الصداقة وهى فقط العوامل التى تحتاج الى الاهتمام بها . ويجب أن نأخذ فى الحسبان عدد ومرات الأوقات التى يتقابل فيها الناس . فاذا تقابلوا واهتموا بعضهم ببعض ، فانهم عرضة لأن يصبحوا أصدقاء ، ومن ناحية أخرى ، فاذا كانوا أصدقاء فلسوف يتحينون الفرص للقاء بعضهم البعض . وان لم يتقابلوا ، فان صداقتهم تكون عرضة للتراجع . ان المشاعر بين الرجلين كل تجاه الآخر ومع من يحيطون بهم انما تمثل اعتمادا متبادلا . فالتجمع getting togather ليس شيئا فى حد ذاته الا مع الصداقة والاهتمامات المشتركة ، فالناس لايجتمعون الا ليفعلوا شيئا .

فى تحليل المثال السابق ، نجد أن " هومانز" فصل سلوك الرجلين وحوله الى عوامل أو factors عناصر elements : العاطفة الشخصية ، الاهتمامات ، الترابط ، المناشط ونجاح هذه المناشط. ورأينا كيف ترتبط هذه العناصر بشكل متبادل مع عناصر أخرى ، وكيف

أمكن معرفة علاقة الرجلين المتعادلة بالوحدة القائمة بذاتها entity : ليس كرجلين فقط وانما رجلان يرتبط كل منهما بالآخر ، وليس كفردان ، لكنه نوع جديد من الوحدة ، الجماعة . ان هذه الوحدة توجد فى بيئة ، حيث تتحدد خصائصها بطبيعة هذه البيئة . وكيف أن العلاقات بين العوامل المختلفة فى حياة الجماعة تساعدها على النمو أو التطور عبر الزمن كبناء معقد . ولقد برهنت " مارى باركر فوليت " M. Parker Follett فى دراستها عن الضبط الادارى ، كما فعل آخرون ، على أن دراسة أى نشاط اجتماعي منظم يؤدى بالضرورة الى دراسة الموقف ككل (الجشطلت) . ومن المشاكل المترتبة على دراسة الكل ، هى أننا من الصعب التأكد من دراسة كل العوامل فى الموقف بين كل عامل وآخر . فالعلاقة تعتبر من الأجزاء التى تكون الكل ، وأن العناصر تشكل الكائن الحى . وتؤكد " مارى " أن الكل يحدد الأجزاء ، كما أن الأجزاء تحدد الكل الذى يحتويها . كما عرفت أن الوحدة ليست استاتيكية ، وشىء منتهى لكنها عملية مستمرة . ونفس النشاط يحدد كل من الأجزاء والكل . اننا نتكلم عن الوحدة units ليست كنتيجة للامتزاج ولكننا نتكلم عن الامتزاج ذاته . interweaering فالوحدة هى دائما عملية وليست نتيجة . والكل لايتحدد فقط من خلال مقوماته ، وانما من خلال علاقة الواحد بالآخر . كما يتحدد الكل أيضا بعلاقته بالأجزاء . وهذا هو نفس النشاط الذى يصنع الكل والأجزاء فى آن واحد . وتقول " مارى " ان النشاط والعملية دائما مايؤديان الى شىء جديد . ولقد لخصت " مارى" أفكارها على النحو التالى :

أولا : يجب الاهتمام بداية بالموقف الكلى .

ثانيا : الاهتمام بطبيعة التفاعل الذى يحدد الموقف ككل .

ثالثا : انشاء الموقف .

وبهذا فان " مارى " تكون قد اهتمت بعمليات ثلاثة هى : التفاعل interaction والتوحيد unifying والانشاء emerging. ان الوحدة فى رأى" مارى " هى فى نفس الوقت عملية والوحدة تعنى أن الأجزاء يتم تناولها بشكل منفصل تنساب بين أناملنا كحبات الرمل ، التى تكون فى حالة تكاملها قوية كالصلب .

يتبين مما سبق كيف يساهم البحث فى تطور النظرية وأيضا فى التقليل من الأساليب المستهدفة كما أنه يوضح المفاهيم ، ويلقن النظرية ، ويعيد صياغتها ويعيد تأكيدها .

ومن المساهمات المتكررة للبحث الامبيريقى ، توضيح المفاهيم المستخدمة فى الصياغة

النظرية . فالبحث لايقوم على المفاهيم المجملة فى مصطلحات عامة ، فمن الضرورى للبحث ايجاد مؤشر للمفهوم . ولكى نقرر مؤشرا لمفهوم مايمكن ملاحظته ، فانه قبل كل شىء يجب توضيح ماذا نعنى بالمفهوم . مثال ذلك ، اذا أراد الباحث دراسة تأثير ملامح معينة لبناء المجتمع المحلى على الصحة العقلية ، فيجب عليه انتهاج أسلوب معين لتقدير الصحة العقلية فى موضوعاته . أما اذا ما ابتكر مقياسا ملائما فانه من الواجب عليه أن يوضح ماذا يعنى بالصحة العقلية . فالحاجة الى تعريفات عملية للبحث غالبا ما تحدد وتكشف عن غموض فى المفاهيم المستخدمة فى الصياغة النظرية وتقديم تعريفات أكثر دقة (٢٩).

وقد يقود الباحث أيضا الى طرق وأساليب غير مخططة عند البدء بالعمل بالنظرية . فالاستقصاء سواء اتخذ أصوله من بعض الصيغ النظرية ، أو من مدخل المحاولة والخطأ ، فانه يتوصل الى نتائج غير متوقعة قد تبدى بعض الدهشة لأنها غير متجانسة سواء مع النظريات القائمة أو الوقائع الأخرى . فالباحث حينما يقوم بتفسير بحثه ، ربما يصوغ فروضا جديدة تلك التى تصبح فيما بعد أساسا لبحث لاحق .

دور البحث فى النظرية

وقد يؤدي البحث فى مواقف أخري الى اعادة صياغة أو توسيع النظرية عن طريق القاء الضوء المباشر على الوقائع المهملة . وهذه الوظيفة تختلف عن الوظيفة السابقة ، لأن الوظيفة الحالية تحدث حينما تتناقض الوقائع مع النظريات القائمة أو مع وقائع أخرى . فالحاجة ليست هى ايجاد بعض التفسيرات الجديدة ، ولكن الى اعادة صياغة نظرية موجودة فعلا تكون قادرة على الاهتمام بتلك الوقائع .

ففى تجربة " هاوثورن " مثلا المشهورة (روثلسبرجر وديكسون ١٩٣٩)(٢٩) ، قد يبدأ الباحثان بالنظرية القائلة : بأن الظروف الفيزيقية تؤثر على انتاج العمل . وكانت هذه العلاقة قائمة فى واقع الأمر ، وقد اهتم الباحثان بتوحيد أثر المتغيرات الخاصة ، للوصول الى ظروف أكثر مثالية . فتم تحسين الظروف الفيزيقية وترتب على ذلك أن زادت نسبة الانتاج وارتفع معدله . كما وجدا أيضا أن الانتاج يرتفع مع ظروف فيزيقية أفقر ، وأدى هذا بدوره الى اعادة اختبار النظرية الأولى . وظهرت صعوبة وهى أنه ليست هناك حاجة الى تعديل ، ذلك لأن هناك عدة متغيرات هامة مهملة ، لذلك لم تعد الظروف الفيزيقية تؤثر على الانتاج، وهنا قد ظهرت متغيرات أخرى ألقت بظلالها البعيدة والقوية على الموقف تلك التى صاحبت التطبيقات التجريبية . فقد عرف العمال فى الجماعة التجريبية أنهم جزء من التجربة وأنهم

موضع اهتمام ولهم دور فعال فى الانتاج كما كونوا علاقات مختلفة مع المشرفين أكثر من تلك التى كانت فى أماكنهم العادية فى المصنع ، وأصبح وجودهم يشكل جزءا كجماعة صغيرة أدى الى زيادة التماسك فيما بينهم . لقد كانت هذه العوامل الاجتماعية والموقفية غاية في الأهمية ، وقد كانت من قبل غامضة ولكنها حجبت تأثير التغيرات فى الظروف الفيزيقية ، وهذه النتيجة كانت هامة ووسعت من النظرية القائلة بأن الانتاج يتأثر ارتفاعه وانخفاضه بعدة عوامل من داخل موقف العمل، بما فى ذلك الاجتماعية وتلك التى تتعلق بالظروف الفيزيقية .

ان البحث الامبيريقى ربما يركز مرة أخرى على النظرية من خلال تركيز الاهتمام على جوانب أخرى جديدة . وهذا يتأتى أساسا من خلال تطور ونمو اجراءات البحث الجديدة . والذى يؤدى بدوره الى نمو سريع فى البحث عن موضوعات يمكن تفسيرها بهذه التكنيكات . وفى البحث السابق فقد غير الاهتمام النظرى من اتجاه البحث ، ليس بسبب نتائج البحث التى أدت بشكل آلى الى النظريات ، وانما بسبب وفرة الملاحظات الامبيريقية التى كشفت عن مجال خصب لتطور واختبار المفاهيم النظرية (٣٠) .

ان العلاقة بين النظرية والبحث هى أحد المساهمات المتبادلة . فالنظرية تستطيع أن تحدد الجوانب التى يفيد فيها البحث ، كما أن نتائج البحث من ناحية أخرى يمكنها أن تختبر النظريات التى ظهرت ، بالاضافة الى قدرتها على توضيح المفاهيم النظرية ، وكذلك تفترض صيغا نظرية جديدة أو تنشر وتوسع من صيغ قديمة . فعملية المساهمة المتبادلة هى عملية مستمرة فالبحث يستثار بأفكار نظرية ربما تكشف عن نتائج جديدة تؤدى بدورها الى البحث ، وبهذا يتم التوحد بين النظرية والبحث . فمن أى نقطة من الأنشطة التى تحيط بالعالم الاجتماعى يمكنه اختيار عمله ، ومعنى مساهمته واهتمامه بها سوف يزيد من رؤيته للعمليات التى تربط بين نتائج الدراسات المبعثرة بالصيغ النظرية ، فسير البحث بدون تفسير أو نظر بدون بحث هو تجاهل للوظيفة الجوهرية للنظرية كأداة لانجاز اقتصادية الفكر(٣١) .

ان البحث حين يبدأ بالنظرية يكون بهدف تبسيط ووصف سلسلة من البيانات والتقارير المنطقية المتشابكة التى تشتمل على مجموعة من المفاهيم المختلفة ، والعلاقات فيما بينها . ومن هذه المفاهيم نستطيع استنتاج الفروض بعملية منطقية . وبعد ذلك نجعل المفاهيم قابلة للاجراء من خلال الفرض وبذلك نستطيع أن نقدم التجربة أو تصميم لبحث آخر يقوم باختبار الفرض . فان تطلب الفرض تصحيحه (أو اثباته بدقة كافية) فان ثقتنا فى النظرية تزداد .

وعلى العكس من ذلك اذا لم يتم اثبات الفرض فانه يكون مطلوبا منا ، بالرجوع الى مثالنا ، تعديل النظرية بطريقة ماحتى تهتم بالفروض المختبرة بشكل واضح وبهذه النتيجة التجريبية الجديدة (٣٢) .

فالنظرية نسق من الفروض الاستنتاجية ... بناء من مجموعة من القضايا التى تعبر عنها مصطلحات تحددها بدقة متناهية ، متمثلة بدءا من تصوير الحقيقة التى تم التوصل اليها من خلال الملاحظة . ان كل التفسيرات فى كل العلوم تقوم على نظريات ، كما أعلن " جورفيتش " تلك النظريات من الممكن أن تتغير حتى لو كان استعمالها استعمالا مؤقتا ، وحتى ولو اعتبرت كفروض بسيطة ، وهى الوحيدة التى لها قيمة تفسيرية . كما تمكننا من وضع مجموعة من التساؤلات ومع ذلك تجيب عليها ، وتسمح بالتفسير وأحيانا بالمراجعة (٣٣).

ان القاعدة الأساسية للعلم هى جمع الملاحظات الممكنة من خلال القياس التجريبى. الا أننا سوف لانصل الى حلول للقضايا العلمية ببساطة عن طريق الملاحظة والقياس المباشر . فكثير من الظواهر قد تكون بعيدة الصلة بالمتغيرات التى تم ملاحظتها بشكل مباشر وهنا يتعذر تفسيرها .ولهذا كان لابد من اقامة نظريات أو مبادىء تفسيرية . وتفسير الظاهرة معناه تناولها تناولا عقليا نظريا يهدف الى تصور العلاقات القائمة بينها وبين غيرها من المتغيرات . وهنا تكمن عملية الفهم كهدف أساسى من أهداف العلم . فنحن نتصور ثمة علاقات على سبيل التخمين ثم نعاود النظر فى هذه التصورات لنتحقق من صحتها بوسيلة أو بأخرى من الوسائل التجريبية . وهذه الوسيلة التى نعبر بها عن تخميننا أو تصورنا هى ماتسمى بالفرض العلمى . ومتى تحقق الفرض أصبح قانونا . والنظام الذى يتضمن عدة قوانين أو فروض علمية محققة فى شكل متناسق موحد هو مانسميه بالنظرية (٣٤) .

وهناك وجه شبه كبير بين الفرض العلمى والنظرية ، لدرجة أنه قد يستخدمات بالتبادل فى بعض الأحيان . فالفرض العلمى يشبه النظرية باعتبارها عملا تصوريا ، وكل منهما هدفه الأساسى التفسير ، ومع ذلك فان هناك بعض الفروق ، كأن يكون الفرض العلمى أكثر تخصصا وأقل شمولا من النظريات ، وعلى العكس فان النظريات تكون أعم وأشمل . ويمكن للنظرية أن تشتمل على عدة فروض علمية . فاذا تعددت الظواهر المراد ملاحظتها وتفسيرها ، وكانت هذه الظواهر مرتبطة بعضها ببعض ، فهنا تكمن الحاجة الى أكثر من فرض

لاستخدامها فى تفسير هذه الملاحظات ، ومن مجموع هذه الفروض فى ارتباطها بعضها ببعض داخل نظام أشمل ، تتكون النظرية (٣٥).

ويختلف القانون العلمى عن النظرية والفرض ، فى أن القانون يمر بمراحل من التحقيق التجريبى حتى يصبح ثابتا نسبيا . وقد يتشابه القانون والنظرية والفرض فى وظيفة التفسير . فالقانون قبل أن يصل الى مرحلة الثبات النسبى يمر بمرحلة الفرض أو النظرية . ويظل هكذا طالما أن الشواهد تؤيده باستمرار ، ومن هنا يمكننا أن نتنبأ بالأحداث التى يفسرها . وقد يخضع القانون للشك اذا ماظهر ماينا قضيه ، فيعود الى مرحلة الفرض ، أما اذا ماظهرت شواهد متناقضة عديدة فانه يتم التخلى عنه كلية(٣٦) .

ويجب أن نؤكد أنه ليست هناك نظرية نهائية أو قانون نهائى فى العلم . فالنظرية وسيلة للتفسير وغاية للسيطرة على العالم . فاذا لم توصلنا نظرية الى غايتها بحثنا عن أخرى أنفع . وتتوقف الفائدة من ا لنظرية على مدى دقتها وشمولها وتأديتها للوظيفة المتوقعة منها فى التفسير . ففى نهاية القرن الماضى قد أعيد تقييم نظرية " نيوتن " فى الميكانيكا نتيجة لظهور النظرية النسبية " لانشتين " . ان قيمة النظرية تتحدد بالاختبار التجريبى أى بوضعها فى محك الاختبار العملى وليس البرهان الجدلى لأن صحتها لاتتوقف الا على البرهان العملي التجريبى . وعلى الرغم من أن البرهام الجدلى والنظرية العلمية ذوى طبيعة شكلية (صورية) أو قياسية بمعنى أن نحدد فى كل منهما مصطلحاتنا ومسلماتنا ومبادئنا الأولية ثم نستخلص النتائج من المقدمات بطريقة منطقية ، ومع ذلك فانهما يختلفان فى طبيعتهما الجوهرية . فإذا كان الهدف من البرهان الجدلى هو الاقناع ، بمعنى التسليم بمقدمات ثم التطرق بالمستمع عن طريق الاستدلال المنطقى الى النتيجة التى يريد اقناعه بها . فان الهدف من النظرية هو الوصول الى قوانين أو مبادىء علمية ثابته نسبيا . فالجدل مرتبط بالأشخاص أما النظرية فانها تهتم بالتغلب على مشكلات الطبيعة (٣٧) .

باختصار ، ان النظرية عبارة عن خطة أو طريقة للبحث ، ذلك البحث الذى نستقرىء الاجابة عن مشكلاته من الطبيعة ذاتها . ولذلك فالنظرية لاتعترف بأى حقائق واضحة بذاتها كما فى حالة البرهان الميتافيزيقى الذى لايستند الى واقع . وعلى الرغم من أن النظرية تقوم على مسلمات فهى تحاول تحقيق هذه المسلمات على أساس من الشواهد والملاحظة .

اذن يمكننا أن نلخص دور كل من النظرية والواقعة كل فيما يأتى:

دور النظرية

١ - النظرية كتوجيه :

ان الوظيفة الرئيسية للنسق النظرى هو تضييق دائرة ومجال الوقائع المدروسة . فأى ظاهرة أو موضوع ربما يدرس بطرق مختلفة كثيرة . كرة القدم مثلا ، يمكن تفسيرها فى اطار اقتصادى وذلك بتدعيمها اقتصاديا . وربما تكون اللعبة موضوعا للبحث الكيميائى ، فمن أجلها تصنع الأدوية الكيميائية العضوية . ولما كان للعبة جمهورها فيمكن دراستها كموضوع فيزيقى يمارس ضغوطا مختلفة . كما أنه يمكن أن ينظر اليها أيضا كمركز للانشطة المتفاعلة السوسيولوجية - اللعب ، الاتصال ، تنظيم الجماعة ، الخ .

ان كل علم وكل تخصص داخل مجال كبير يتجرد عن الواقع ، كما يركز على جوانب قليلة من الظواهر المحدد دراستها وليس على كل الجوانب ، وهكذا يمكن أن يكون عمل العلم فقط هو امكانية التنظيم المصغر . والتوجيه الكبير لكل مجال ، والتركيز على مجال محدد من الأشياء . كما يتجاهل أو يضع افتراضات عن أخرى . وفي ضوء هذه الاعتبارات قد فهم علم الاجتماع فى القرن ١٩ ، وكان بفضل الأعمال الرئيسية التى قدمها رواد النظرية من أمثال كومت وسبنسر وتونيس وزيمل لتعريف عمل وموضوع الدراسة لعلم المستقبل . ان النظرية تساعد على تحديد ماهى أنواع الوقائع المناسبة لدراستها .

٢ - النظرية تضع المفهوم والتصنيف :

ان كل علم منظم يتكون من بناء من المفاهيم ، تلك التى تشير الى العمليات الأساسية والموضوعات الواجب دراستها . انها العلاقات بين المفاهيم التى تتحدد من خلال وقائع العلم . حتي المصطلحات فانها تتكون من مفردات متخصصة تلك التى يستخدمها العلماء . وهذه المصطلحات تتغير كلما تطور العلم ، وهى تعتبر هامة جدا لظواهر مختلفة . وهكذا فانه من الواضح أنه اذا كانت المعرفة فى حاجة الى تنظيم ، فان النسق يفرض نفسه على الوقائع المطلوب ملاحظتها . وكنتيجة فان العمل الأساسى لأى علم انما هو تطور وتنمية انساق التصنيف ، وبناء المفاهيم ، وتزايد مجموعة دقيقة من التعريفات لهذه المصطلحات . فدارس علم الاجتماع تعلم من تاريخ علم الاجتماع الكثير عن علم الاجتماع الذى طور من مخططاته المفهومية . وأشارت هذه المخططات الى ظواهر معينة لها أهمية كبيرة ويجب دراستها ، كما ساعدت هذه المخططات على تنظيم وقائع العلاقات الاجتماعية . وبعض هذه المفاهيم المستخدمة الآن ربما ذكرت لتجعل الطالب يأتلف بوظيفة النظرية : مثل التوسع

والتعاقب invaison and succession الانسان الهامشى ، المكانه والدور ، نسق الطبقة التنشئة الاجتماعية ، الحراك الاجتماعى والمسافة الاجتماعية .

٣ - عمل آخر للنظرية وهو التلخيص : summarizing

ان من أعمال النظرية التلخيصات الدقيقة لماهو معروف عن موضوع الدراسة . وهذه التلخيصات يمكن تقسيمها الى نوعين صغيرين :

١ - التعميمات الامبيريقية . ٢ - أنساق العلاقات بين القضايا .

وعلى الرغم من أن العلم ربما يظن أن مجال عمله هذا عبارة عن بناء معقد من العلاقات فان معظم عمله اليومى سوف يهتم بالعمل الأول : الزيادة أو اضافة القليل من المعطيات التى يعبر عنها فى تعميمات امبيريقية . فعلماء الاثنولوجيا (علم الأعراق البشرية) ربما يدرسون عادات الحشرات الاجتماعية من أجل تلخيص هذه الملاحظات فى مجموعة من الأوصاف . أما عالم الاجتماع أو عالم النفس الاجتماعى ربما يجمعان معطياتهما عن الاختلافات والفروق فى عمليات تربية الطفل فى طبقات مختلفة . أما الديمغرافى فربما يهتم بجدولة المواليد والوفيات فى فترة معينة وذلك من أجل التقليل من معدلات المواليد . هذه الوقائع مفيدة ويمكن تلخيصها فى مجموعة من العلاقات النظرية البسيطة أو المعقدة .

والتلخيص بهذا المستوى غالبا مالايعتبر نظرية ، وبكل تأكيد فهو سابق على وجود العلماء . فالوجود المستمر للانسان يجعله يقوم بملاحظات امبيريقية كثيرة ، وقوع الأشياء ، طفو الخشب خطر الغرباء ، ... الخ أى كل ما يقابل الانسان فى حياته التجريبية .

انه من الواضح من ناحية أخرى ، أن هناك بعض التقارير تكمن وراء ملاحظة مفردة أو مجموعة من الملاحظات المفردة . وتصبح هذه التقارير معقدة للغاية ، وتتضمن بعض التعبير عن الشروط التى تضبط هذه التقارير . علاوة على ذلك فان جملة التقارير الملخصة تنمى كلما أمكن ذلك من رؤية العلاقات بين هذه التقارير . كارهاق الطالب المبتدىء ، رسامة الكاهن ، الختان الشعائرى ، شعائر واحتفالات التدرج أو التكريس gradution ceremonies ، المعمودية (وهى أول تجربة يواجهها المرء فى حياته الجديدة) ، وكل هذه ظواهر لعدد من القضايا التى تم تلخيصها ويمكن النظر اليها كما لو كانت ترتبط الواحدة مع الأخري ، من خلال اساليب تعطى الجماعة بمقتضاها مكانة مختلفة للفرد ، والأنماط التى تؤكد حق الجماعة فى الضبط ، كما تعطى التعبيرات الشعائرية لوحدة الجماعة .

والتنظير لايزال على المدى الواسع ، يحاول بقدر المستطاع اجراء عملية تكامل بين التعميمات الامبيريقية الأساسية للاحداث الهامة . ومن وقت الى آخر وفى أى علم ، توجد هناك تغيرات فى هذا البناء من العلاقات بين القضايا . فمبدأ " نيوتن " كان مثالا لعمل " انشتين " عن نظرية النسبية الخاصة . كما أن " تالكوت بارسونز" كشف وبين من خلال مؤلفه " بناء الفعل الاجتماعى " بأن هناك تغيرات أساسية من هذا النوع أمكن تعقبها فى أعمال " ماكس فيبر " . وكذلك فعل كل من " دوركايم " و " باريتو" حين بدءا من الأنساق القديمة للنظرية التى تتجه نحو النسق الأكثر قبولا .

فمن خلال أنساق القضايا يمكن تفسير الكثير من تقاريرنا العامة . فالوقائع ترى داخل اطار ولاترى بشكل معزول . فمثلا ، ليست الجماعة مجموعة مكونة فقط من الأعضاء . فهى تشكل مجتمعا خاصا . فقد تكون معدلات الانحراف عالية فى المناطق المتخلفة أو الموبوءة عنها فى المناطق ذات المستوى المتوسط . فاذا درسنا بوضوح بعض التقارير البسيطة وبشكل محكم ، فانه من الواضح أن وراء كل واحدة من هذه التقارير مجموعة معقدة من الملاحظات ، ومجموعة من الافتراضات حول تأثير العوامل الاجتماعية على السلوك ، وكذلك نسق من القضايا عن الطريقة التى تعمل بمقتضاها الجماعة . وهناك سلسلة خفية من الوقائع أو النظرية التى تقدم لنا تقارير بسيطة لمعانيها الكاملة .

عادة ، وبطبيعة الحال ، فانه يكون هناك بعض الأنساق النظرية التى من الواجب التسليم بها ، ولا نعطيها التفكير الكافى . فاذا كانت تحدونا الرغبة فى نقل أو تفسير أفكار معقدة فيجب أن تكون الأنساق واضحة . وبالنسبة للعالم فانه من المهم له أن يكون بناء الوقائع قد تحدد بشكل كامل . فالوضوح النظرى يتطلب أن يعى العالم فكرة النسق المستخدمة أكثر من الرجل العادي.

٤ - ان النظرية تتنبأ بالوقائع :

فاذا أمكن للنظرية أن تقوم بتلخيص الوقائع وتقديم اتساق عام من وراء ملاحظات مباشرة فتستطيع أيضا أن تتنبأ بالوقائع . وهذا التنبؤ له وجوه متعددة . ومن الواضح تماما أنه هو استنتاج غير المعروف من المعروف . مثال ذلك ، انه يمكننا ملاحظة أن التكنولوجيا الغربية تؤدى الى الهبوط الحاد فى معدلات المواليد كما أن هناك هبوط نسبى ضئيل فى معدلات المواليد لدولة ما ، وذلك من خلال المظاهر الأولية . وبهذا نتوقع أنه اذا ظهرت مظاهر التكنولوجية الغربية فى دولة ما ، فاننا نتوقع هبوط فى معدل المواليد .

وبالمثل فاننا سوف ندهش حينما نجد أن معدلات الانحراف فى مناطق امريكية متخلفة أقل منها فى باقى الأنحاء ، أو انخفاض معدلات الزواج الثانى للمطلقين بين سن ٢٥ - ٣٤ عن معدلات الزواج بين الأشخاص العزاب فى هذه السن ولقد سجلت العديد من الملاحظات التى أدت الى تلك التعميمات . ولسوف نتوقع أن نجد مثل هذه الأنماط فى تلك الأماكن أو المناطق التى لم يكن لدينا عنها أى معطيات أو بيانات ، كما نتوقع أن نجد نفس هذه الأنماط فى المستقبل وذلك للأسباب الآتية :

١ - اننا نعرف بل ونعتقد فى هذه العوامل التى تسبب هذه الأنماط .

٢ - أننا نعتقد بأن تلك العوامل سوف توجد فى مواقف جديدة .

ان بناء النظرية يحتاج الى أسلوب الحس المشترك common sense الى جانب تعميماتنا فالنظريات تحدد أنه تحت ظروف ما يمكن ملاحظة س ، ص . ان أى نظرية ربما تكون خاطئة ، وبهذا فانها لاتضع تنبؤات لملاحظة الظواهر . وهناك مجموعة من التوجيهات ، تحدد كيف تعمل العمليات والملاحظات والحسابات ، للتنبؤ بالنتائج . ولما كان علم الاجتماع فى مهده يبدى تنبؤات بسيطة نسبيا فقد اختلفنا فى قبول عوامل العلية وربما كنا نضع تنبؤات خاطئة . مثال ذلك ، أن العوامل التى أدت إلى ارتفاع معدلات الزواج للمرة الثانية بين المطلقين فى هذا البلد ربما لاتوجد فى بلاد أخرى ، وبهذا يكون التنبؤ لأى من نمط الولايات المتحدة خاطئا .

ومع ذلك فأنه من الواضح أن النظرية تقوم بعمل تحديد ماهى الوقائع الواجب توقعها . وهذا بدوره يكون من مجمل التوجيهات التى تقود الباحث ، والتى تقول له ماهى المعطيات التى يجب عليه ملاحظتها .

٥ - النظرية تحدد الثغرات فى معلوماتنا :

فمند أن قامت النظرية بتلخيص الوقائع المعروفة والتنبؤ بها دون ملاحظتها ، فكان من الواجب أيضا تحديد أى الجوانب التى لم تقم باستكشافها . وكما ذكر من قبل ، فان حقيقة التنبؤ البسيطة تفترض اختيار معارفنا . فاذا حددت النظرية علاقة عامة ، كالعلاقة العكسية بين الدخل والخصوبة ، فإنه يمكننا أن نرى مباشرة أن هناك وقائع يجب معرفتها . اننا نستطيع تقسيم مستويات الدخل الى مجموعات أصغر لنرى ما اذا كانت الخصوبة عالية

(رغما من انخفاضها) فهى أعلى بكثير من دخل الجماعات ، اننا نستطيع اما التقليل من هذا النمط الموجود فى المناطق الريفية كما هو الحال فى المناطق الحضرية ، أو فى دول أخرى ، واما يمكننا دراسة العلاقة التاريخية بين الدخل والخصوبة . هذه فقط أمثلة ، ويستطيع الطالب أن يجد أمثلة أخرى يقترحها بقضية عامة .

وهكذا تحذد النظريةأيضا الثغرات فى الأنواع الأكثر أهمية . فاذا ماحصرنا هذه الثغرات فانه عادة مايحدث تغيرات فى التخطيط المفهومى . وتكون رؤية الثغرة هنا سهل جدا من أول مرة . ولنأخذ مثالا من علم الاجرام . ان البناء الحقيقى للمعرفة قد بنى على أساس الاهتمام بالسلوك الاجرامى وأسبابه فى الوقت الذى بدأ فيه " سيزرلاند " بحوثه التى ارتبطت بالجرائم الأكثر عمومية كالقتل والحريق العمد والسرقة والسطو وهكذا . وبالادراك الجيد نستطيع أن نرى أن بناء النظرية يرتبط يرتبط بالعلية القائلة بأن الجرائم ارتكبتها (أساسا) الطبقات الدنيا . ومعظم الجرائم التى ارتكبت على يد الطبقة المتوسطة أهملت ولم يوجه اليها الاهمام ، وبشكل أكثر خصوصية ، أهملت الجرائم التى يتصف بها ذوى الياقات البيضاء التى تفشت بين رجال الأعمال فى النشاط العادى . لقد رأى " سيزرلاند " أن هذا يمثل فجوة جوهرية فى نظرية علم الجريمة ، حيث أشارت الي نقص المعرفة حول هذا النوع من الجرائم . لذلك بدأ كثير من الباحثين الآخرين الاهتمام ببحث هذه الجوانب .

وهكذا فان الثغرة لانراها فى الوقائع التى حولنا والتى لاتكون نسقية ومنظمة . والنتيجة هى أننا نستطيع القول بأن النظرية لاتدعى أى من معارفنا تكون ناقصة . فالطالب المبتدىء يجب عليه الاطلاع بنفسه على النظرية القائمة . كما أنه سيصبح من الواضح له لماذا تصبح مشكلة بحث ما منتجة وأخرى مجدبة .

ولما كانت النظرية والواقعة يتفاعلان مع بعضهما البعض بشكل ثابت فلنا أن نتساءل أيضا ماهو دور الواقعة حيال النظرية .

دور الوقائع حيال النظرية

ان التطور الذى يحدث فى النظرية ربما يؤدى بدوره الى تطورات فى الواقعة . فالنظرية ليست عنصرا سلبيا ، ولكنها تلعب دورا فعالا فى الكشف عن الوقائع . وبالمثل فان الواقعة تلعب دورا هاما فى حياة النظرية وتطورها والعلم يعتمد على قيام النظرية بالتنبيه المستمر للواقعة وقيام الواقعة بالتنبيه المستمر للنظرية :

١ - تساعد الواقعة على تلقين النظرية :

ان كثيرا من قصص الاهتمام الانسانى فى تاريخ العلم تصف كيف تكون الواقعة لافتة للنظر وكيف يتم العثور عليها ، كل هذا بالطبع أدى الى ظهور نظريات جديدة وهامة . وهذا مايعتقد فيه العامة على أنه اكتشاف . ويمكن أن نستوحى أمثلة متعددة من علوم كثيرة : فالنتيجة العرضية لعفن البنسلين كان مسئولا عن نمو البكتيريا ، وكذلك استئصال البنكرياس فى الكلب ترتب عليه ظهور عرض البول السكرى ، كما أن الراديوم قد أوضح من الصور حتى ولو كانت موضوعاتها معتمة . وقد تكون هناك أخطاء كثيرة فى الرؤية أو القراءة و الكلام لا تكون عرضية ولكن لها أسباب خفية ومنظمة ، فالبندول له طول معين ، وحركته حرة ، يتأرجح الى الأمام والى الخلف في زمن متساوى .والكثير من هذه الأسئلة اتخذت شكلا دراميا زائدا فى رواية ثانية ، لكنها كلها تعبر عن واقعة حقيقية وهو نمو العلم ، حيث أدت الملاحظة البسيطة بشكل واضح الى نظرية لها أهميتها .وقال " ميرتون " عن هذا النوع من الملاحظة بالمعطيات غير المتوقعة الشاذة ، والاستراتيجية .

ومن الضرورى التأكيد على أن الوقائع الاستراتيجية لاتتحدث عن نفسها . ولايستطيع أى باحث الاستجابة لهذا المطلب . ان كل مكتشف يسير على هداه الآخرون ، هؤلاء الذين يرون أن اكتشافه الأول وتفكيره لايتعدى هذا الاكتشاف . ان كل فرد يعرف أن كثيرا من زلات القلم وفلتات اللسان ترجع الى عوامل أخرى غير العارضة ، تلك التى استخدمها " فرويد" فى تجربته الشخصية حين بدأ التوسع فى نظريته المفيدة عن الملاحظات المشتركة . نلاحظ هنا أن الواقعة تقوم بتلقين النظرية اذا ماوفق الطالب فقط - كلما أمكن ذلك - التفاعل بين النظريةوالواقعة .

٢ - تؤدى الوقائع الى رفض و اعادة صياغة النظرية القائمة :

ان الوقائع لاتحدد بشكل كامل النظرية ، منذ أن استطاعت كثير من النظريات الممكنة أن تتطور نتيجة اهتمامها بالعديد من الملاحظات الخاصة . ومع ذلك فان الوقائع تكون أكثر عنادا من النظرية . ان أى نظرية يجب أن تتكيف مع الوقائع كما يجب أن ترفض ويعاد صياغتها ان لم تكن موافقة للبناء . فالبحث يستمر بكفاءة اذا تم اجراء اعادة الصياغة أو رفض النظرية فى وقت واحد . وتتجمع الملاحظات بالتدريج وهى تبدى تنحية الشك فى النظرية القائمة جانبا . وبينما يتم التخطيط لاختبارات جديدة ، فان النية تتجه الى صياغة جديدة لنظرية متطورة تتناسب مع هذه الوقائع الجديدة . ويستنتج المرء من هذا الموقف أنه فى

أى لحظة يمكن للعلماء أن يشكوا فى النظرية القديمة ، دون أن يطوروا بشكل كاف بناء جديد للنظرية .

وتعتبر أعمال "دوركايم " عن ظاهرة الانتحار من الحالات الكلاسيكية فى علم الاجتماع . فقد شغلت مشكلة الانتحار انتباه كثير من المحللين قبل " دوركايم " . ففسر البعض الانتحار فى ضوء الباثولجيا النفسية . بينما استخدم آخرون المناخ فى التفسير . كالعرق والجنسية الخ . ولذلك فقد بذلوا الجهود فى الاهتمام بكل الوقائع . ومع ذلك ، كما أوضح " دوركايم" بأن هناك بناءات يمكن قبولها لواقعة لاتتوافق مع أى من هذه النظريات المختلفة .وعلى الخصوص فاذا كان أحد هذه العوامل ثابتا غير متغير فان معدلات الانتحار لاتكون ثابتة بالضرورة . ولقد حاول "دوركايم" الاشارة الى أن كل هذه الوقائع تتفق مع أنواع الانتحار المختلفة .(كعملية مفهومية جديدة) ومع نظرية التفكك الاجتماعى والشخصى . وفيما بعد سوف تؤدى وقائع جديدة الى إعادة صياغة البناء النظرى لدى " دوركيم" .

ان العلاقة بين الواقعة والنظرية يمكن التعبير عنها فى رموز ومصطلحات قياسية . والنظرية تتنبأ بأن هناك وقائع معينة يمكن ملاحظتها : اذا وجدت (س) فانه يمكن ملاحظة (ص) ، واذا تعذر ملاحظة (ص) فان ظرف (س) لم يمكن الحصول عليه . كذلك ، فاذا لم يتوافر شرط(س) ولم يتم ملاحظة (ص) فان القضية الأصلية يجب أن ترفض .

ان العلم ربما يكرس وقته فى تضييق الاحتمالات دون اهمالها أو القائها جانبا . ويمكن أن تقوده وقائعه الجديدة الى رفض النظريات القديمة ، وهذا يؤدى الى صياغة نظريات جديدة ، يقوم اختبارها على الملاحظة والتجربة . فالأفكار القديمة عن " الدم الملوث" والسلالة كعوامل تدخل ضمن أسباب انحراف الأحداث ، كانت قد اعتمدت على بعض الحقائق (المعدلات العالية للانحراف كانت فى أسر معينة وفى جماعات عرقية بالذات) . ان هذه النظريات كانت غير متناسبة مع نمو بناء الوقائع حول :

١ - كيف تم تسجيل الانحراف لدى البوليس فى أماكن مختلفة .

٢ - العلة الاجتماعية للجريمة تساوت مع النظريات البيولوجية.

انه فى كل حقبة من الحقب الزمنية يتم تسجيل وقائع جديدة ، بحيث تتطلب معظم النظريات الحديثة تغييرها بشكل خاص .

وعادة مايعنى اعادة الصياغة أن هناك تأكيد وتركيز جديد أمام العالم ، على النسق

النظرى حيث تأتى الخطوط الجوهرية للبحث . وتبعا لذلك فسوف يتم تسجيل وقائع جديدة . وسوف نكتشف الحقيقة القائلة بأن انحراف الأحداث لايمكن فهمه فقط من خلال المصطلحات البيولوجية لأن لهذه الانحرافات ابعادا اجتماعية ، وهذا سيضطرنا الى الاهتمام بوقائع أخرى تركز على الحتمية الاجتماعية لهذه الظاهرة . ونبدأ فى البحث عن معطيات جديدة بدراسات اضافية . ومن اجل صياغات نظرية جديدة ، فربما تغير الوقائع اتجاه البحث العلمى . ومع ذلك فقد تكون هناك وقائع سلبية مفيدة .

٣ - ان الوقائع تعيد تحديد وتوضيح النظرية :

عادة مايفسير العالم مشكلته قبل الاختبار الفعلى أو المعملى بوقت طويل ولايندهش لنتائجه . ومن النادر أن يجد العالم واقعة بسيطة لاتناسب نظرية أولية ، أو يختبر فرضين متغيرين لكل منهما درجة متساوية من البرهان . وفى الأساس ، فان عمله يشتمل على تحديد لما يعتقد فيه أنه حقيقة .

ان الوقائع الجديدة التى تناسب النظرية دائما ماتفيد فى تحديد النظرية ، فهى تعين بالتفصيل مالذى تحدده النظرية فى مصطلحات عامة جدا . فالواقائع تعلن أن النظرية تلقى الضوء على مفهوماتها . واخيرا ان الوقائع ربما تقدم بشكل واقعى مشاكل نظرية جديدة ، وبهذا فان اعادة التحديد ربما تبعد بشكل خاص عن النظرية . مثلا الفرض القائل ،بأنه حينما يهاجر بعض سكان الريف الى المناطق الحضرية ، فاننا نتوقع بأنه سوف يحدث تفكك شخصى بدرجة كبيرة . هذه القضية قد طبقت بالتفصيل على جماعات الهجرة الداخلية وأطفال هؤلاء المهاجرين . كما نتوقع أيضا أن كثيرا من التغيرات فى أنماط العادات سوف تحدث فى عملية التوافق هذه . وأحد هذه العادات هو انخفاض الخصوبة . ونتيجة لهذه الأفكار ، توقعنا أنه حينما يسكن الزنوج المدن الكبرى فان معدلات المواليد لديهم سوف تنخفض . وفى واقع الأمر فان معدلات التناسل الخالص لزنوج الحضر سوف تنخفض عن تلك التى لدى زنوج الريف . وبهذا يمكننا القول بأن الواقعة ترتبط بالتنبؤ النظرى .

ولما كانت النظرية تمثل توقعا عاما ، فان الوقائع الديمغرافية تعتبر خاصة . فالنظرية لاتحدد لنا كم الاختلاف القائم . ففى واقع الأمر أن معدلات الخصوبة بين الزنوج الحضريين كانت منخفضة عما هو موجود لدى البيض فى الحضر . وبهذا فاننا نميل الى اعادة صياغة النظرية فى اتجاه التخصصية الكامل ، ونرى أيضا أن نظريتنا القديمة لاتهتم ببساطة بهذه

الوقائع الجديدة . فالواقائع لا ترفض النظرية القديمة ، لأنها ببساطة أكثر تعقيدا وتحديدا عن تنبؤات النظرية الأساسية كما انها تدعو الى بحوث اضافية .

وفى الحقيقة فقد كان من بين تجارب الباحثين الأساسية ، كان أختبار أى نظرية قائمة فعلا وذلك بهدف اعادة تحديدها . فالمفاهيم التى يتم قبولها ببساطة ووضوح قد تكون محيرة ومربكة وغامضة ومحددة بشكل سيء وذلك حينما نطابقها بالوقائع . وعلى الرغم من مطابقة الوقائع بالمفاهيم ، فنجدها أكثر دقة وتحديدا من المفهوم أو النظرية . علاوة على ذلك فانه بعد اعادة التعريف والتوضيح ربما تؤدى بدورها الى اكتشاف فروض جديدة . فالنظريات التى استخدمناها منذ زمن بعيد والتى استخدمت مصطلحات عامة ، كما وضعت تنبؤات عامة ، كان من الصعب اثبات بطلانها أو دحضها . اننا ربما نتنبأ بوجود بعض التكامل بين البنا ءات السياسية والدينية فى أى نسق اجتماعى مثلا . وربما تكشف البحوث عن بعض القضايا العامة الواقعية ومع ذلك فلا يمكنها بكل الأساليب والطرق المختلفة التنبؤ بدرجة هذا التكامل فما هى نسبة هذا التكامل ، ولماذا ؟ ويكمن التكامل بين البنا ءات السياسية والدينية فى الوقائع الآتية : الكهنة والسياسيين السحرة والرؤساء ، المتعصبين الشعائريين والمواطنين العاديين ، الضرائب والهدايا والعطايا المرتبطة بالعبادات ، المعابد وقاعات القضاء . والنظر الى هذه الوقائع يساعدنا على تحديد نظرياتنا باهتمام ، تلك التى تكون قادرة على اكتشاف طريقة للبرهنة على هذه الوقائع .

ان الوقائع تصبح منبها لاعادة تعريف النظرية حتى ولو كانت متفقة معها . إن هذه العملية تؤدى الى اعادة صياغة النظريات واكتشاف وقائع جديدة (٣٨).

وفى هذا المعنى يقول " كارل بوبر " ان النظرية تكون امبيريقية اذا أمكن رفضها أو تفنيدها بواسطة الملاحظات الامبيريقية ، فاذا كانت النظرية غير قابلة للتفنيد عن طريق الملاحظة فلا يمكن اعتبارها امبيريقية بالمعنى الدقيق (٣٩) .

ويؤكد " بوبر" اهتمامه بالاستقراء فى مطلع كتابه " المعرفة الموضوعية " بقوله : اننى أعتقد بأننى قد توصلت لحل للمشكلة الفلسفية الأساسية . وكان يقصد مشكلة الاستقراء .

فقد كان هذا الحل مفيدا وجعله هذا قادرا على حل العديد من المشاكل الفلسفية الأخرى . كما يؤكد على أهمية القابلية للدحض والتفنيد كمفهوم له فائدة مباشرة للعلم . لذلك فان مفهوم العلم لديه يتميز بخصائص معينة عن الميتافيزيقا والعلوم الزائفة كالماركسية

والتحليل النفسى من خلال الوقائع الموجودة فى العلم ، ففى العلم فقط سلمت كل النظريات بشكل صارم وملح بالاختبار .

ولقد قام "بوبر" بمحاولة منظمة للربط بين مفهومات الاختبار وبين الخاصية النظرية للملاحظة ككل فى مفهوم متطور وهو المعرفة العلمية . والخلاصة أن مفهوم " بوبر " عن المعرفة مشوش تماما لأنه عام جدا . ويرى " بوبر" أن النظريات الاجتماعية والسياسية ليس لها أساس عقلانى . فالعالم النظرى أو التجريبى ، يضع مسبقا تقارير لأنساق من التقارير ثم يختبرها خطوة خطوة . ففى مجال العلوم الامبيريقية بوجه خاص ، يبنى العالم الفروض ، أو أنساق من النظريات ثم يختبرها بالتجربة عن طريق الملاحظة .

لقد قدم منطق الاكتشاف العلمى تحليلا منطقيا لهذا الاجراء . ويعارض " بوبر" وجهة النظر القائلة بأن العلوم الامبيريقية تتصف باستخدام مناهج الاستقراء ، لأن نظرياتها نشأت عن طريق الاستدلال من تقارير مفردة ، من خلال وصف الملاحظات أو التجارب ، الى وضع تقارير عامة ، كالنظريات والفروض . ان مشكلة الاستقراء تهتم بالشروط التى بمقتضاها يتم الاستقراء والاستدلال . وهذه المشكلة والرد عليها يصفها " بوبر " كالآتى :

هل من الواجب حقا ثبات النظريات التفسيرية العامة بتفسيرات امبيريقية ، وذلك بتتبع صدقها من خلال تقارير اختبار معين أو تقارير الملاحظة ؟ يقول : " بوبر" ، ان اجابتى هى نفس اجابة "هيوم" : لا ، لأنه لايوجد عدد من تقارير التجربة الواقعة كاف لاثبات اجابة طلب " بوبر" لمشكلة الاستقراء لأنه ميز بين مايسمى بالتقارير العامة من ناحية والتقارير الخاصة من ناحية أخرى . فالعلوم تهتم بالكشف عن حقيقة التقارير العامة لذلك فقد استمرت فى اختبار الفروض العامة أو النظريات العامة فى مقابل التقارير الخاصة . تلك التقارير الخاصة التى تشير الى مايمكن ملاحظته فى نواحى خاصة من حيث الزمان والمكان . والتقارير العامة لم تكن مقيدة اذا كانت تشير الى كل الجوانب فى الزمان والمكان .

ان النظريات العلمية تشتمل على تقارير عامة تلك التى تسمى أحيانا بقوانين الطبيعة والتى تتصف بالاتساقات الجوهرية ، فاذا وضعت تقارير لهذه النظريات طبقا للشروط الامبيريقية الخاصة . ففى هذه الحالة يكون من الممكن الخروج بتنبؤات لما يمكن ملاحظته فى مناطق خاصة من حيث المكان والزمان . مثال ذلك ، التقرير العام القائل " كل الأوز العراقى لونه أبيض " يرتبط بالتقرير الفردى بأن هناك أوزة عراقية شديدة الشبه فى منطقة ما يستلزم التنبؤ بأن هناك أوزة بيضاء فى مناطق أخرى .

ان النظريات العلمية نظريات وصفية بشكل جوهرى : فهى تشير الى مايمكن ملاحظته فى أى منطقة خاصة من حيث الزمان والمكان وذلك اذا ماواجهت ظروفا خاصة . ومفهوم " بوبر" عن العلم لايحتاج الى مصطلحات نظرية بالمعنى الذى لدى " كارناب" والذى يشير الى الموضوعات أو الخصائص التى يصعب ملاحظتها .

ولقد رفض " بوبر" تمييز " كارناب" بين المصطلحات النظرية والمصطلحات المرتبطة بالملاحظة لأنه كان يجب عليه تفسير كل قضية نظرية تفسيرا وصفيا بشكل أساسى لكل المواقف والمهام الممكن ملاحظتها . ومن خلال التفسير فانه يمكن تجريد القضية النظرية ، التى لم يكن من الممكن تفنيدها ودحضها بشكل مباشر عن طريق الملاحظة . ان معيار " بوبر" " تعيين الحدود" كان بتأثير من مفهومه الميتافيزيقى للعالم الذى يتصف بالتواتر والتشابه تلك التى تمثلت فى التقارير الوصفية العامة .

فالعلم يسلم بالتقارير الوصفية واختبارها من خلال حالات عامة يمكن ملاحظتها . ولهذا فان التحليل النفسى غير علمى بحسب قول " بوبر " . فنظريات التحليل النفسى لم يكن من المستطاع تفسيرها كتقارير وصفية عامة منذ أن وافقت على الحالات العامة التى أمكن ملاحظتها . لنتأمل حالة الرجل الذى يدفع بطفل الى المياه بهدف إغراقه ، وذلك الرجل الذى كرس حياته فى محاولة حماية الطفل : فمن وجهة نظر " فرويد " أن الرجل الأول كان يعانى من الكبت (بمعنى أن لديه بعض مركبات عقدة أديب) بينما الرجل الثانى وصل الى حالة من التسامى .

وهكذا قد أدرك " بوبر" العلاقة بين النظرية والملاحظة فى العلوم حين تتطابق مع النمط العنصرى للعلاقة بين التقارير الوصفية العامة والتقارير الوصفية الفردية التى تم ايضاحها سابقا . ان أى شىء يفشل فى احترام هذه الخطة المبسطة يكون غير جدير بأن يكون علما(٤٠) .

الهوامش

(١) د. شحاته سعفان - تاريخ الفكر الاجتماعى - المدارس الاجتماعية ، دار النهضة العربية ط ١ ١٩٦٥ ص٣ المقدمة .

(٢) د. غريب محمد سيد أحمد - علم الاجتماع - دار المعرفة الجامعية ١٩٨٥ ص ص ٩٥-٩٨.

(٣) د. اسماعيل عبد البارى-أسس علم الاجتماع- دار المعارف ط٢ ١٩٨٠،ص ص٣٠ . ٣١.

(٤) د. فؤاد زكريا - التفكير العلمى - مجلة علم المعرفة ، ط ٣ ١٩٨٨ ص ص ٣٣ . ٣٤.

(٥) د. أحمد سليم سعيدان - مقدمة لتاريخ الفكر العلمى فى الاسلام - مجلة عالم المعرفة ١٩٨٨ ص ٢٩ .

(٦) روبرت م . أغروس - العلم من منظورة جديدة ، ترجمة كمال خلايلى مجلة عالم المعرفة ١٩٨٩ ص ١٦٤.

(٧)

(8) Selltiz, Jahode Deutsch, cook, Research methods in social relations, Holt,Rinehart and winston,N.Y., 1959,PP.480-1

(٩) نيكولا تيماشيف - نظرية علم الاجتماع ، طبيعتها وتطورها ، دار المعارف بمصر ط ١ ١٩٧٠ ص ص١٣، ١٤ . ١٥ . ترجمة د. محمد الجوهرى وآخرون .

(١٠) د. غريب محمد سيد أحمد وآخرون - المدخل فى علم الاجتماع المعاصر - دار المعرفة الجامعية - الاسكندرية ١٩٨٤، ص٩٤.

(١١) جون ركس - مشكلات أساسية فى النظرية الاجتماعية - ترجمة د. محمد الجوهرى وآخرون دار المعرفة الجامعية - الاسكندرية بدون تاريخ صص٥١-٥٣.

(١٢) المرجع السابق ص ص ٥٤ . ٥٨.

(١٣) بيرسى كوهن - النظرية الاجتماعية الحديثة -ترجمة د . عادل الهوارى ، دار فينوس للطباعة والنشر ، ١٩٧٧ ص ٧.

(14) Op . cit; P. 485.

(15) Ibid; P. 487.

(16)Ibid; P. 429

(17) Ibid; P. 490.

(18) Ibid; P. 491

(19) Ibid ; P. 499

(20) Robert K. merton, social theory and soicial slructure rev. ed. (Glenco 111 : The Free press, 1957) P.140

(21) Kimbal Young of Raymond W. mack; Systematic sociolagy Tex Reading; AFFilited East- west press P.V.T, LTD N.Delhi,1972. P.452

(22) Ibid; P. 453.

(23) Hemri mendras, Elements de sociologie, Armand colin - collection Paris; 1975; P.123

(24) op. cit; selltiz, PP. 490-493

(25) Ibid; PP. 498-99.

(26) Ralph lintan , The cultural Back Gromd of Personality Routledg & Kegam paul LTD, London , 1968, PP. 19-21

(27) Gearge C. Homans, the Human Group, (routledge Kegan Paul LTD,) London , 1968, PP.3-12

(28) Ibid; P.6

(29) Ibid; PP.16 , 17

(30) Ibid; PP. 6-FF

(31) Ibid; PP. 494 , 5

(٣٢) انظر فى ذلك : علم الاجتماع الصناعى ، د. عبد الباسط محمد حسن

علم النفس الصناعى ، د. أحمد عزت راجح

النظرية الاجتماعية ودراسة التنظيم د. السيد الحسينى

(33) Ibid; PP. 496, 97, 98

(34) Ibid; PP. 499

(35) John Rex; Approach to sociology; an introduction to megor treuds in British socology, Poutledge of Kegan paul Lonon)1974, PP. 72 - 209

(36) Madeleine Grauritz; methdes des sciences sociales' zeuseed. Daloz Paris, 1976

(٣٧) د. محمد عماد الدين اسماعيل - المنهج العلمى وتفسير السلوك - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ط٣ ١٩٧٨ ص ص ٦٢ ، ٦٣.

(٣٨) المرجع السابق ، ص ٦٩

(٣٩) المرجع السابق ص ٧٠ .

(٤٠) المرجع السابق ص ص ٨٢، ٨٦ .

(41) Goode & Hatt; Methods in social research; mc Graw- Hil kogak,uska, LTD,1952 PP. 7,8,9

(٤٢) د. عادل الهوارى - مرجع سابق ص ١٠.

(43) Barry Hindess, Philosophy and methodology in the social sciences, The Horvester Press, 1977.

المراجع العربية

(١) د. شحاته سعفان - تاريخ الفكر الاجتماعى - المدارس الاجتماعية ، دار النهضة العربية ١٩٦٥ .

(٢) د. غريب محمد سيد أحمد - علم الاجتماع - دار المعرفة الجامعية ١٩٨٥ .

(٣) د. اسماعيل عبد البارى-أسس علم الاجتماع- دار المعارف ١٩٨٠.

(٤) د. فؤاد زكريا - التفكير العلمى - مجلة علم المعرفة ١٩٨٨.

(٥) د. أحمد سليم سعيدان - مقدمة لتاريخ الفكر العلمى فى الاسلام - مجلة عالم المعرفة ١٩٨٨ .

(٦) روبرت م . أغروس - العلم من منظورة جديدة ، ترجمة كمال خلايلى مجلة عالم المعرفة ١٩٨٩ .

(٧) نيكولا تيماشيف - نظرية علم الاجتماع ، طبيعتها وتطورها ، دار المعارف ١٩٧٠ .

(٨) د. غريب محمد سيد أحمد وآخرون - المدخل فى علم الاجتماع المعاصر - دار المعرفة الجامعية - ١٩٨٤.

(٩) جون ركس - مشكلات أساسية فى النظرية الاجتماعية - ترجمة د. محمد الجوهرى وآخرون دار المعرفة الجامعية بدون تاريخ.

(١٠) بيرسى كوهن - النظرية الاجتماعية الحديثة -ترجمة د . عادل الهوارى ، دار فينوس للطباعة والنشر ١٩٧٧.

(١١) د. محمد عماد الدين اسماعيل - المنهج العلمى وتفسير السلوك - مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٨.

المراجع الأجنبية

(1) Selltiz, Jahoda Deutsch, cook, Research methods in social relations, Holt,Rinehart and winston,N.Y., 1959

(2) Robert K. merton, social theory and social structure rev. ed. (Glenco 111 : The Free press, 1957)

(3) Kimbal Young & Raymond W. mack; Syskematic sociolagy 1979

(4) Hemri mendras, Elements de sociologie, Armand colin - collection Paris; 1975

(5) Ralph lintan , The cultural Backgrownd of personality Routledg & Kegan paul LTD, London , 1968

(6) John Rex; Approach to sociology; an introduction to major trevds in British sociology, Routledge & Kegan paul Lonon)1974

(7) Madeleine Grauritz; methodes des sciences sociales' Zeme ed. Daloz Paris, 1976

(8) Goode & Hatt; Methods in social research; mc Graw- Hil Kogat Kuspa, LTD,1952

(9) Barry Hindess, Phylosafhy and methodology in the social scienas, The Harvester Press, 1977.